

البوصيري

شاعر البردة

تأليف : مأمون غريب

المبشر
للدراسات والبحوث

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق شروت - ص. ب. 2022 برقيا دار شادو - القاهرة - ت : 3923525 - 3936743 - فاكس : 3909618

جميع وطبع : عربية للطباعة والنشر
تليفون : 3251043 - 3256098
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

رقم الإيداع : 2001 / 18620
الترقيم الدولي : 2 - 715 - 270 - 977
الطبعة الأولى : شوال 1422 هـ - يناير 2002 م

البوصیـری



وهذه بُزْدَةُ الْمُخْتَارِ قَدْ خُتِمَتْ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي بَدْءٍ وَفِي خَتَمٍ
أَبْيَانُهَا قَدْ أَتَتْ سِتِّينَ مَعَ مَائَةٍ
فَرَّجَ بِهَا كَرِيمُنَا يَا وَاسِعَ الْكَرَمِ

« البوصيري »

| الموضوع | الصفحة |
|------------------------------------|--------|
| - هذه السلسلة وهؤلاء الشعراء | ١٣ |
| - مقدمة | ١٩ |
| - الرسول الكريم وشعراء المدائح | ٢٣ |
| - البوصيري وسيرته الناضرة | ٣١ |
| - البوصيري وعصره | ٣٧ |
| - أشعار البوصيري | ٤٣ |
| - البردة . . رائدة المدائح النبوية | ٤٩ |
| - البردة . . وشعراء الإسلام | ٥٥ |
| - خاتمة | ٦٣ |
| - قصيدة البردة | ٦٧ |
| - المصادر والمراجع | ٧٩ |

الشعر

ديوان العرب... وسجل حياتهم...

والشعراء هم أصحاب الرأي والتعبير على مرّ العصور...

ومن مظاهر تقدير العرب للشعراء أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن المزاهر - كما يصنعون في الأفراح - لأن الشاعر كان لسان القبيلة ، وهو الذى يمثل الحياة لأعراض الناس ، وهو المدافع عن أحسابهم ، والمُفَاخِرُ بهم أثرهم... والمُجَدُّ لذكورهم.

وكان العرب لا يهتئون إلا بغلام يُؤَلِّد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج...!

وقد أجمع دارسو الأدب العربى على أن الشعر يمثل جوهر الثقافة العربية، حتى أن أية دراسة عن الشعر العربى يمكن أن تكون دراسة عن الثقافة العربية والوجدان العربى معاً.

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسموا عصور الأدب العربى إلى مراحل متتالية... وربما اعتمد هذا التقسيم على النظرة السياسية... أو التغيّر السياسى داخل المجتمع ، مما يؤثر ويتفاعل مع تطور الشعر وأساليب تعبيره... - فالعصر الجاهلى مثلاً يبدأ قبل ظهور الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وينتهى بظهور الدعوة الإسلامية... .

- ويبدأ العصر الإسلامي منذ ظهور الدعوة . . وينتهي بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين . . وظهور الدولة الأموية سنة ٤١ هـ .
- ويبدأ العصر الأموي منذ ولاية معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ هـ حتى قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .
- أما العصر العباسي الأول فيبدأ بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى قيام دولة بني بويه عام ٢٣٤ هـ .
- ويبدأ العصر العباسي الثاني منذ قيام دولة بني بويه حتى هجوم المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ وانقسام الدولة العربية الكبرى إلى دول صغرى وإمارات شرقاً وغرباً .
- ثم يبدأ عصر النهضة الحديثة منذ قيام دولة محمد علي حتى وقتنا الراهن . .

وهو تقسيم لا نظن أنه يخضع لحدود قاطعة فاصلة لكل عصر تبدأ وتنتهي بقيام دولة وسقوط أخرى . . ولا نظن أيضاً أن الأدب يمكن أن يغير جلده هكذا بين يوم وليلة - كما تتغير الظروف السياسية - وإنما يعني هذا التقسيم أن ملامح الأدب في عصر ما تستكمل مقوماتها في ظل ظروف سياسية واجتماعية معينة ، وتخفت بعض من ملامح أو يضاف إليه ملامح أخرى في عصر تالٍ . . وهكذا !!

ولابد أن الشعراء الذين أخلصوا لفنهم كانت لهم مواقفهم المتباعدة في ظلال هذه العصور المتتالية ، فلم يكن ذكرهم خافتاً ، ولا لوتهم باهتاً ، ولا صوتهم ضائعاً في زحام التحولات السياسية المختلفة ، ومن ثم تنوع ولاؤهم ، وتميزت أساليبهم ، وتعددت مذاقاتهم ورؤاؤهم وتجاربهم ، فتجاوزوا سَمَتَ العصر ، واخترقوا حاجزَ الزمن ، ليصلوا إلينا شاخصين قادرين معبرين عن جوهر الإحساس الإنساني ، على حين أسدل الزمن على من لم

يملك هذه القدرة عباءته السوداء ، وطواهم في جُبِّ النسيان ، لأنهم لم يفلحوا في التعبير عن عصرهم ، ولا استطاعوا أن يصلوا إلينا كما وصل غيرهم .

ولا شك أن القارئ المعاصر - في زحام الحياة الضاغطة المهمومة - في حاجة ملحة إلى الاقتراب من عالم الشعر - قديمه ومعاصره - في أبرز نماذجه وأفضل شعرائه ، وتنوع مذاقاته ، واختلاف بيئاته ، لكي يقف على عظمة هذا الفن العربي الذي تقدّم كل شيء ، وأحرز السبق على غيره من الفنون العربية .

ونعتقد أن هذه العظمة هي جزء من عظمة التاريخ العربي والحضارة العربية . . وهي أيضاً بطاقة عبور صادقة إلى كل ما هو ساطع وناصع في الساء العربية ، تتحدى الغيم ، وعصف الرياح ، واعتداء الساطحين على مقدرات هذه الأمة العريقة .

ولأن الشاعر شاهد على عصره ، فقد أولينا هذا المعنى اهتماماتنا واختياراتنا ، فوقفنا في باب كل عصر نظرقه ، ونستخلص منه كنوزه الشعرية التي تمثل خير تمثيل .

وآثرنا في خطتنا أكثر من عنصر يكمل دائرة الفائدة . . أهمها :

أولاً : أنها سلسلة موجهة للشباب والناشئين . . لهذا فإنها تتخذ منهجاً مختلفاً يبتعد - بقدر الإمكان - عن المناهج الأكاديمية التي قد يعافها ذوق أولادنا .

ويلتزم هذا المنهج تقديم الشاعر من خلال سيرة حياته بأسلوب مبسط يجمع بين الدراما والسرد والنص الشعري . . يهدف إلى كسر الملل والرتابة . . وتقريب القارئ الشاب إلى عالم الشاعر الإنساني والفني معاً . . بحيث يخرج القارئ من الكتاب بمعرفة غير محدودة

بالشاعر وعصره وتجربته الشعرية وأثرها في مسيرة الشعر العربي . .
وكيف نقل الشاعر بحسّه وقدرته مشاعره وأفكاره إلى عصره ومجتمعه
بل إلى عصرنا الراهن في إيجابية وعطاء ممتد متجدد .

ثانياً : أن يكتب عن هؤلاء الشعراء أساتذة وأدباء وشعراء ممتازون ، على
درجة عالية من الرغبة الداخلية في هذه المشاركة ، والإيمان العميق
بجدوى هذه الرسالة ، والقدرة على العرض والتبسيط والالتزام بخطة
السلسلة .

ثالثاً : أن تبدأ هذه السلسلة بالشعراء المعاصرين ، باعتبار أن القارئ
المعاصر قريب إلى حسّ هؤلاء الشعراء وتجاربهم ولغتهم وخيالهم . .
ثم نعود القهقري إلى العصور السابقة ، وقد تسلح القارئ بذخيرة
من الفهم والتذوق تجعله يقتحم تلك العصور في شغف وإقبال .

رابعاً : ألا تقتصر هذه السلسلة على تقديم شعراء بعينهم في بيئة بعينها ،
وإنما هي تنظر إلى خريطة الشعر العربي من المحيط إلى الخليج في
وحدة فنية مترابطة ، تحقق للقارئ المعاصر هذا الحسّ العربي
الممتاز الذي لا يدانيه حسّ آخر في أي منطقة من العالم .

.....

ولابد أن المهمة على هذا النحو صعبة ودقيقة . . !
لكننا على يقين أن الإخلاص والإيمان بجدوى ما نُقبل عليه كفيلاً
بتذليل كل الصعاب ، وتيسير كل الدروب العسيرة ، وتقدير كل قاصّ
وبعيد .

ولا نملك في نهاية هذه العجالة إلا أن نشكر من كل قلوبنا كل من
أسهم في إذكاء نار الحماس لإصدار هذه السلسلة الجميلة من الأساتذة
والأدباء والشعراء المشاركين .

كما لا نستطيع أن نغفل ترحيب الصديق الناشر محمد رشاد . . حينما تقدمنا إليه بهذه الفكرة ، وكيف أصر على إخراجها بهذا المنهج الخاص ، الذى نتمنى أن يكون مختلفاً عن أى منهج سابق .

أما الصديق العالم اللغوى المدقق الأستاذ محمد فتحى أبو بكر . . فله من القلب كل الدعاء وكل الشكر على ما يبذله من جهد خلاق متفاني وراء كل كلمة ، وكل جملة ، وكل إضافة جيدة .

ولك أيها القارئ الشاب . . هذا العمل الذى يمثل عصارة قلوب الذين شاركونا بالحب والعطاء . !

والله الموفق ،

أحمد سويلم

جاء الرسول الكريم بالرسالة الإسلامية الخالدة، وتحمل في سبيل تبليغها ما تحمل من شدائد وصعاب، حتى تم النصر وانتشر الإسلام في كل مكان، يحمل حضارة بالغة الثراء والعطاء. حضارة دفعت من اعتنقوا الإسلام نحو التقدم والازدهار، بما ينطوي عليه الدين الحنيف من حرص على العلم والعمل، بنفس الحرص على العبادة لله والإخلاص له، وبما يحمله من أريج الروح، مما يجعل من يتمسك به بحس حلاوة الإيمان، ولذة القرب من الله.

من هنا أحبَّ المسلمون رسولهم، وأحبوا فضائله، والتمسوا مكارم الأخلاق عنده. ومن هذا الحب نسجوا أروع القصائد، ونظموا أجمل الأشعار في مدح صاحب الرسالة. ومن ثم رأينا كيف كان يمدح «حسن بن ثابت» الرسول ﷺ، ويكيل الهجاء لأعدائه. ومن هنا أيضًا رأينا كيف مدح «كعب بن زهير» الرسول ﷺ في قصيدته الشهيرة «بانت سعاد»، والتي بدأها - كعادة الشعراء - بالغزل، ثم أخذ في مدح الرسول، حتى إن الرسول ﷺ أهداه بُرْدَتَهُ إعجابًا بالقصيدة. تلك «البردة» التي اشتراها «معاوية بن أبي سفيان» بعد ذلك بعشرين ألف درهم، وكان يلبسها خلفاء بني أمية من بعده تبركًا بها في العيدين. وكان مطلع هذه القصيدة:

بَانتْ سَعَادُ فِقْلِبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ
مُتَيِّمٌ إِنْزَها لَمْ يُقَدِّ مَكْبُولُ

وفيها يقول :

نُبِّئتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي
وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَبْذُولُ

وفيها يقول مادحاً أعظم الرُّسل :

إِنَّ الرُّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ

وَصَارِمٌ مِنْ شُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكُ

وبذلك مَهَّدَ «كعب بن زهير» بمدحَ الرسول لمن جاء بعده من شعراء الصوفية وغيرهم أن يترسَّمُوا خُطَاهُ وَيُنَبِّتُوا الْقَصَائِدَ مَدْحًا لِلرُّسُولِ، وإشادةً بمواقفه ومناقبه، وشمُّوا أخلاقه . . وإن كانت المدايح قبل الإمام «البوصيري» قد امتزجت بالسياسة والوَلَعُ بالمديح والمُحَسِّنَاتِ والزُّخُوفِ اللفظي، فإن الإمام «البوصيري» اتَّسَمَ شعره بالشفافية، وجمال الموسيقى، وروعة التعبير عن أشواق الروح . . مما جعل لمدايحه مَذَاقًا فَرِيدًا، ونكهة خاصة تميزه عن سائر الشعراء في هذا المجال، أَصَفَتْ على شعره الجمال والجلال، حتى سار على نهجه شاعر عظيم كـ «محمود سامي البارودي»، وأمير الشعراء «أحمد شوقي» .

ولكن تظل مدائح الإمام «البوصيري» أَرْقَى وأَجْمَلَ ما قيل مدحًا في الرسول ﷺ، لأنه كتبها بلهفة المحبِّ، بلا تكلف، ولا جرى وراء الصنعة . .

فَعَكَّسَتْ هَذِهِ الْمَدَائِحَ رَوْحًا صَافِيَةً ، وَجَاءَ الشَّعْرُ مَعْطَرًا بِأَرْيَاحِ الرُّوحِ ،
وَجَمَالَ التَّعْبِيرُ ، وَرَوْعَةُ الْمَوْسِيقَى .

فَهَيَّا بِنَا نَبْحِرْ مَعًا إِلَى عَالَمِ الْإِمَامِ «البوصيري» وَمَدَائِحِهِ ، وَنَتَوَقَّفْ خَاصَّةً
عِنْدَ رَائِعَتِهِ «الْبُرْدَةِ» ، لِنَرَى كَيْفَ أَحَبَّ «البوصيري» الرَّسُولَ هَذَا الْحَبَّ الَّذِي
مَلَأَ كُلَّ كِيَانِهِ . . فَانْبَثَقَ عَنْ هَذَا الْحَبِّ هَذِهِ الرُّوعَةُ فِي الْمَشَاعِرِ ، وَالتَّصْوِيرِ
الْبَدِيعِ الَّذِي نَشَاهِدُهُ فِيهَا كُتِبَ مِنْ أَشْعَارِ .

مَأْمُونٌ غَرِيبٌ

عندما وُلِدَ النَّبِيُّ - عليه الصلاة والسلام - ما كان أحد يدري إلاَّ الله تعالى أن هذا الوليد سوف يُغَيِّرُ معالم الحياة، لا في مكة وحدها حيث وُلِدَ، ولا في شبه الجزيرة العربية، ولكنه سيغيِّرُ معالم الحياة في العالم كله . . فالدين الذي أنزل عليه سوف ينتصر على الكفر والجهل والضلال، وعبادة الأوثان، وسوف يطهر مكة مما أحاطَ بها من هذه الأصنام التي تُعْبَدُ من دون الله . . وسوف تتوَحَّدَ على يديه شبه الجزيرة العربية، وتَدِينُ بالدين الذي جاء يُبَشِّرُ به، من عبادة الله الواحد الأحد، وإلى الإيمان بالملائكة، والرسل السابقين، واليوم الآخر . . وأن أتباعه سوف يدينون بالدين الحنيف الذي يأمر بالعدل والإحسان، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً . . وأن هذه القبائل العربية سوف تتوَحَّدَ وتتصير تحت راية هذا الدين الجديد على أقوى القُوى في عصرهم، وهم الفُرس والرومان . . وأن هذا الدين سوف ينتشر بسرعة الضوء في مختلف أرجاء الدنيا .

إنَّ هذه الانتصارات الهائلة في مختلف المجالات لم تكن بالأمر الهين السهل، فصاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام تحمل الكثير في سبيل

تبليغها ونشرها ، فقد قاوم الدعوة في أول العهد بها كبار رجالات مكة وأئمة الكفر بها ، وقاومها أصحاب المصالح المتعلقة بعبادة الأوثان . . كما قاومها - حقداً وحسداً - مَنْ خَشِيَ أَنْ يَسُوذَ بنو هاشم بهذه الدعوة الجديدة ، وقاومها أيضاً من يتمسكون بعبادة أسلافهم ، ولا يريدون أَنْ يُعَيَّرُوا ما دَرَجُوا عليه من عبادة ما كان يعبد الآباء والأجداد .

وحاربها أيضاً من خشي على مَصَالِحِهِ ، خَاصَّةً أَنْ هذه الدعوة لَا تُفَرِّقُ بين السادة والعبيد ، فتعاليمها تقول : إن أقرب الناس إلى الله هم الْمُتَّقُونَ ، بغَضِّ النظر عن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية .

لم يكن انتصار الدعوة إِذَا سَهلاً وَلَا هَيَّئاً ، فما أَكْثَرَ ما عُدَّتْ أصحاب الرسول ﷺ . . حتى إِنَّ بعضهم أَثَرُ أَنْ يهرب بدينه إلى الحبشة فراراً مما يلاقيه على أَيْدِي صناديد قريش مما ذكرته كتب السيرة . . بل إن الرسول نفسه قد حُوصِرَ مع بنى هاشم وأتباعه في شِعْبٍ من شِعَابِ مكة ثلاث سنوات ، وَحَرِّمَتْ مكة التعامل معهم بالبيع أو الشراء أو الزواج ، وكتبت ذلك في صحيفة ظالمة وَقَعَهَا عُنَاةُ مكة ، وَعُلِّقَتْ بجوف الكعبة .

وبرغم هذه المصاعب التي اعترضت طريق الدعوة ، فقد صَمَدَ لها «محمد» وأصحابه ، وصبروا عليها ، حتى كَلَّلَ الله صبرهم بالنصر .

لقد نَصَرَ الله نبيه بعد أن أَمَرَهُ بالهجرة من مكة إلى المدينة ، وكانت بداية انتصاراته في المعارك التي خاضها ضد الكفر والجهالة قد بدأت بانتصار بدر ، ثم تبع ذلك انتصاراته في مختلف الغزوات ، حتى استطاع أَنْ يدخل مكة فاتحاً ، وأُتِيَ إليه الوفود من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية تباعه على الإسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

هذه الشخصية الأييرة كانت موضع احترام وحب المسلمين في كل العصور . .

أحبوه لفضائله وأخلاقياته . .

وأحبوه لجهاده العظيم . .

وأحبوه لأنه كان المثل الأعلى للمسلمين في الشجاعة والوفاء، والإيثار، والتواضع، والزهد، والتقوى، والخوف من الله، وحب للناس جميعاً.

لقد كانت شخصية الرسول ﷺ شخصية بالغة الجلال والتكامل . . ومن هنا أحبه كل من عرفه، وكل من آمن بدينه في مختلف العصور . . وكان أكثر الناس حباً له الزهاد والمتصوفة، الذين دفعتهم أشواقهم إلى التعبير عن هذا الحب شعراً ونثراً، فامتألت بطون الكتب التي تتناول حياة هؤلاء الزهاد والصوفية بالمدائح التي عاشت عبر مختلف العصور، لأن هذه القصائد معطرة بنسائم الروح، ومملوءة بالأشواق والحب الصادق لصاحب الرسالة الخالدة . . فالذين عاصروا الرسول ﷺ رأوا فيه قرآناً يمشى على الأرض، والذين لم يشاهدوه من العصور التي تلت عصره قرءوا عنه ما وصفه به «هند ابن أبي هالة» - ربيب النبي ﷺ من «خديجة» أم المؤمنين - حين قال :

« كان رسول الله ﷺ متواصلاً الأحزان، دائم الفكر، ليس له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة . . طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم، فضلاً لا فضولاً فيه ولا تقصير . . دماً، ليس بالجافي ولا المهيّن، يُعظّم النعمة وإن دَقَّتْ، لا يذمُّ شيئاً ولا يمدحه، ولا ينام لغضبه إذا تعرّض أحد للحق بشيء حتى ينتصر له . . إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فضر بلبها ما

اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غَضَّ طَرْفَهُ، جُلَّ ضحكته التبُّسُّم، ويفتر عن مثل حبِّ الغمام».

وقد وصفه «أبو هريرة» فقال:

«كان يُقبِلُ جميعاً، ويُدْبِرُ جميعاً.. لم يكن فاحشاً ولا مُتَفَحِّشاً، ولا صَخَّاباً في الأسواق».

وقرأت الأجيال التالية له ما رواه «أنس» خادم الرسول أنه - عليه الصلاة والسلام - «كان إذا صافَحَ الرجلَ أو صافَحَهُ الرجلُ لا ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده، وإذا أراد رجل أن يُبَيِّرَ إليه حديثاً في أذنه، فيحنى رأسه له حتى يكون الرجل هو الذى ينحيه».

وما أكثر ما قرأت الأجيال التالية عن شأله.. وما كان يمتاز به من خُلُقٍ عظيم.. أليس هو القائل: «اللَّهُمَّ إِنِّي بَشَرٌ مِنَ النَّبَشِ، أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّهَا رَجُلٌ دَعَوْتُ عَلَيْهِ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ صِلَةً وَرَحْمَةً، وَصَلَاةً وَطَهُورًا، وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وهو القائل في مرض الموت:

«أيها الناس، مَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْرًا، فهذا ظَهْرِي فَلْيَسْتَقْدِ مِنْهُ.. وَمَنْ كُنْتُ قَدْ شَتَمْتُ لَهُ عَرَضًا، فهذا عَرَضِي فَلْيَسْتَقْدِ مِنْهُ.. وَمَنْ أَخَذْتُ مِنْهُ مَالًا، فهذا مَالِي فَلْيَأْخُذْ مِنْهُ وَلَا يَخْشَى الشُّحْنَاءَ، فإنها ليست من شَأْنِي. أَلَا وَإِنْ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ مَنْ أَخَذَ مِنِّي حَقًّا إِنْ كَانَ لَهُ، أَوْ حَلَّلَنِي، فَلَقِيْتُ رَبِّي وَأَنَا طَيِّبُ النَّفْسِ».

لكل هذه الشائِل وَصَفَهُ رَبُّهُ بأنه على خُلُقٍ عظيم.. ولكل هذا مدحه معاصروه من الشعراء.

قال « كعب بن زهير » :

تُحَدِّثُ بِه النَّاقَةُ الْأَدْمَاءَ مُعْتَجِرًا^(١)

بِالْبُرْدِ كَالْبَدْرِ جَلَى لَيْلَةِ الظُّلَمِ

فَفِي عَطَافِيهِ أَوْ أَثْنَاءَ رَيْطِهِ^(٢)

مَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ دِينٍ وَمَنْ كَرَّمَ

وقد تأثر بمثل هذا الشعر «البوصيري» فيما بعد عندما نظم لامية يقول في مطلعها :

إِلَى مَتَى أَنْتَ بِاللَّذَاتِ مَشْغُولُ

وَأَنْتَ عَنْ كُلِّ مَا قَدَّمْتَ مَسْئُولُ

فِي كُلِّ يَوْمٍ تُرْجَى أَنْ تُتَوَّبَ عَدَا

وَعَقْدُ عَزْمِكَ بِالتَّسْوِيفِ مُحْلُولُ

ومن هنا نرى أن «البوصيري» كان ممن أعجبوا بشعراء المديح الذين مدحوا الرسول الكريم، وعلى رأسهم «كعب بن زهير». . كما نراه - من خلال دراسته لسيرة الرسول الأعظم، وجهاده العظيم وشجاعته، وعبادته وزهده، وتواضعه ووفائه - شديد الإعجاب بشخصية الرسول الكريم. . فكان يرى - كما يرى بعض الصوفية - أن النور المحمدي كان يسرى عبر الأنبياء والمرسلين، وأنه أفضل هؤلاء الأنبياء والمرسلين. . ولذا كان

(١) الْمُعْتَجِرُ : الذي يلف العمامة على رأسه ولا يَتَلَخَّى بها .

(٢) الرُّيْطَةُ : الملاء إذا كانت قطعة واحدة .

«البوصيري» حريصاً كل الحرص على الاقتراب من أضواء الحضرة النبوية
وتجلياتها، فيقول للرسول في همزيته :

وَمِنْ الْفَوْزِ أَنْ أَبْشَكَ شُكْوَى
هِيَ شُكْوَى إِلَيْكَ وَهِيَ اقْتِضَاءُ
ضَمَّتْهَا مَدَائِحُ مُسْتَطَابِ
فِيكَ مِنْهَا الْمَدِيحُ وَالْإِضْغَاءُ
فَلَمَّا حَاوَلْتُ مَدِيحَكَ «إِلَّا»
سَاعَدَتْهَا «مِيمٌ» وَ «دَالٌ» وَ «حَاءٌ»
حَقَّقَ لِي فِيكَ أَنْ أُسَاجِلَ قَوْمًا
سَلِمَتْ مِنْهُمْ لِدُلْوَى الدَّلَاءِ
إِنَّ لِي غَيْرَةً وَقَدْ زَاخَمْتَنِي
فِي مَعَانِي مَدِيحِكَ الشُّعْرَاءِ
وَلِقَلْبِي فِيكَ الْغُلُوُّ وَإِنِّي
لِللِّسَانِ فِي مَدْحِكَ الْغُلُوُّ

فهو شاعر مُجِبٌّ للرسول وآل بيته، ويعرف أن هناك من الشعراء مَنْ
مدحوا الرسول، ولكنه يعلن أنه يغار منهم، وأنه يتمنى أن يكون أسبق من
هؤلاء الشعراء بالتغنى بإثر أعظم رسل السماء. أليس هو القائل :

آل بيت النبي طِبُّهُمْ فَطَابَ الْـ
مَدْحُكُمْ فِيكُمْ وَطَابَ الرِّثَاءُ
أَنَا «حَسَنُ» مَدْحِكُمْ فَإِذَا نَحْدُ
سْتُ عَلَيْكُمْ فَإِنِّي «الْحُسَيْنُ»

والآن . . هيا بنا - عزيزى القارىء - لنعرف :

- من هو الإمام « البوصيرى » ؟

- وكيف اتجه هذا الاتجاه فى مدح الرسول ؟

- وما الذى دعاه إلى ذلك ؟

- وكيف تأثر بالاتجاه الصوفى متمثلاً فى الطريقة الشاذلية التى اتبعها،
وأصبح تلميذاً فى مدرسة الإمام «أبى الحسن الشاذلى» ، وتلميذه وخليفته
«أبى العباس المرسى» ؟

- وماذا يتميز به شعره ؟

- وما الفرق بينه وبين من اتجهوا نفس وجهته فى مدح الرسول ممن سبقوه،
أو من جاءوا بعده ، كـ «البارودى» فى رائعته «كشف الغمّة فى مدح سيّد
الأمّة» ، وأمير الشعراء «أحمد شوقى» فى رائعته «نهج البردة» ؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه فى الصفحات الآتية .

أمّا عن الإمام «البوصيرى» فيقول عنه «السيوطى» فى كتابه (حسن

المحاضرة) : «هو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد، الدلاصى المولد، المغربى الأصل، البوصيرى المنشأ. وُلِدَ بناحية «دلاص» سنة ثمان وستائة ٦٠٨ هـ، وبرع فى النظم، وتوفى سنة ست وتسعين وستائة ٦٩٦ هـ». وكان والد «البوصيرى» من «دلاص»، ولذلك كان يُسمى بالدلاصى، وقد اشتهر بالبوصيرى نسبة إلى بلد أمّه «بوصير» - كما جاء فى (الخطط التوفيقية).

ويبدو أن «البوصيرى» نبغ مبكراً فى الشعر وحسن البيان، فقد عمل فى أول أمره فى مدينة «بليس» - إحدى مراكز محافظة «الشرقية» حالياً - بتولى الكتابة فى الجبايات (الضرائب). غير أنه لم يسعد فى هذا العمل لشعوره بفساد الموظفين فى ذلك العصر، إذ يبدو أن الرشوة كانت شائعة فيهم. . وكان هو ذا روح تواقّة لما عند الله، فلم يعجبه هذا الفساد فى الذم، وقرر أن يهجر العمل الحكومى. وقد عبّر عن تَبَرُّمه بهذا الفساد السائد فى دواوين الحكومة بقوله:

خَيْرْتُ طوائفَ المُستوظفينَا

فلم أرَ منهم رجلاً أمينَا

وما كان لرجل فى تقوى وورع «البوصيرى» أن يتقبل هذا الوضع، فترك «بليس» إلى الإسكندرية، حيث شاعت الطريقة الشاذلية التى أسسها «أبو الحسن الشاذلى»، وكان شديد الإعجاب بتلميذه وخليفته «أبى العباس المرسى»، فتبع طريقته، وأصبح من أشهر تلاميذه هو «ابن عطاء الله السكندرى» صاحب الحكيم المشهورة.

وَحَدَّثَ أَنَّ أَصِيبَ «البوصيرى» بشلل نصفى أقعده عن العمل، ممّا

جعل نفسه تَوَقُّقاً إلى مَدْحِ الرسول، والتوسل بذلك إلى الله، لعل الله يشفيه مما أَلَمَّ به من المرض. ونَظَّمَ قصيدته الشهيرة «البردة». تلك القصيدة التي اشتهرت وترجمت إلى العديد من اللغات في العصر الحديث لما فيها من معاني جميلة.

يقول الرواة على لسان «البوصيرى» :

« كُنْتُ قد نَظَّمْتُ قصائدَ في مدح الرسول ﷺ، ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فَالِج «شلل» أَطَّلَ نَصْنِي، ففكرتُ في عملِ قصيدتي هذه - «البردة» - فعملتها. . . وَاسْتَشْفَعْتُ بها إلى الله تعالى أن يعافيني، وَكَرَّرْتُ إنشادها، وَبَكَيْتُ، وَدَعَوْتُ وَتَوَسَّلْتُ، وَنَمْتُ. . . فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَسَحَ على وجهي بيده المباركة، وَأَلْقَى عَلَيَّ بُرْدَةً. . . فانتبهتُ، وَوَجَدْتُ قِيَّ نَهْضَةٍ، فَقُمْتُ وَخَرَجْتُ مِنْ بَيْتِي».

وسرعان ما شاعت هذه الرؤيا. . . وسرعان ما شاعت القصيدة. . . ووصل ذلك الأمر إلى أَسَاحِ «الصاحب بهاء الدين» وزير السلطان «الظاهر بيبرس البندقدارى». . . فطلبه، وطلب منه أن يستمع إلى هذه القصيدة، وأنه سوف يسمعها من «البوصيرى» واقفاً مكشوف الرأس احتراماً وإجلالاً للرسول عليه الصلاة والسلام.

ويُقال إنَّ «البوصيرى» كتب له هذه القصيدة بخط يده ليقرأها بين الحين والحين، أو حين تَلِمُ به المُلِمَّاتُ. . . وظل طوال حياته يردد أبياتها. و«الصاحب بهاء الدين» هذا هو الذى اشترى الآثار النبوية من بنى إبراهيم بمدينة «ينبع»، وَبَنَى لها الأثر المطل على النيل، في المكان الذى يُعرف اليوم بـ «أثر النبى» نسبةً إلى الآثار النبوية.

ويقول الرواة : إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو الذى أكمل أحد الأبيات لـ « البوصيرى » ! فقد كتب « البوصيرى » :

وَمَبْلُغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ

ثم لم تسعفه الذاكرة فى إكمال البيت ، فجاءه الرسول - عليه الصلاة والسلام - فى الرؤيا وأكمل البيت بقوله :

وَأَنَّهُ خَيْرٌ خَلَقَ اللَّهُ كُلَّهُمْ

وهذه القصيدة التى اشتهرت وَرَدَّهَا الناس فى عصره وحتى اليوم ، قيل إن « البوصيرى » عندما تشفّع إلى الله تعالى بسيدنا « محمد » ﷺ فى إزالة كَرْبِهِ ، وَأَكْثَرَ من الدعاء والتضرع ؛ رَأَى الرسول فى رؤياه . . وكان نتيجة ذلك الشفاء من مرضه . وكان هذا سِرًّا فيما بينه وبين الله تعالى لم يُطْلَع عليه أحدًا من الناس ، فلقيه بعض الصوفية وقال له : أريد أن تعطينى القصيدة التى مَدَحْتَ بها رسول الله ﷺ . فقال « البوصيرى » : وأى قصيدة تريد ؛ فإننى مدحْتُه بقصائد كثيرة ؟ قال الصوفى : القصيدة التى أنشأتها فى مرضك . وذكر له بدايتها قائلاً : لقد سمعتها وهى تُنشَدُ بين يَدَيَّ مَنْ كُتِبَتْ له . فأعطاه « البوصيرى » القصيدة . . وشاع المنام ، وانتشرت القصيدة .

ومهما يكن من شئ ، فإن الحب الصادق الذى كان يضطرم فى قلب « البوصيرى » للرسول - عليه الصلاة والسلام - قد انبثقت عنه تلك القصيدة الجميلة التى تعبر عن أشواقه وحبهِ العظيم لصاحب الرسالة الخالدة .

والقصيدة تبدأ بِغَزَلٍ . . حيث يَتَغَزَّلُ بحجازية من مَوْضِع يُسَمَّى « ذو سَلَم » يهب النسيم عليه مُحمَّلاً بعبير من تِلْقَاء « كاظمة » :

أَمِنْ تَذَكُّرٍ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ
مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاطِمَةٍ
وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ إِصْمٍ
فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ اكْخُفَا هَمَّتَا
وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ اسْتَفِيقْ يَهْمٍ
أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحَبَّ مُنْكَرِمٌ
مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمٍ
يَا لَائِمِي فِي الْهَوَى الْعُدْرَى مَعْدِرَةً
مِنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

وهو بالطبع لم يقصد بهذا الغزل تلك الحجازية، وإنما هو يعبر عن هذا الحب رمزاً لحب الرسول الكريم الذي ملأ قلبه كل جوانب نفسه، وأن هذا الحب لو عرفه الناس لقدروا وما لاموه، لأنه حب يعلو على كل حب.

لكنَّ نعرف الجو الذي عاش فيه «البوصيري» والظروف التي جعلت منه هذا الشاعر الصوفي المحب لله ورسوله ، لابد أن نتوقف عند المؤثرات التي أثَّرت على الحياة في عصره بصفة عامة ، والحياة التي أثَّرت عليه شخصيًا بصفة خاصة ، حتى جعلت منه هذا الشاعر مُؤَهِّفَ الحس والوجدان .

كان العصر من العصور التي احتشدت فيها مصر ودول الوطن العربي كافة لمواجهة الغزوات الصليبية التي احتلت فلسطين ، وأخذت تهدد الشام ومصر وبقية بلاد العرب .

وفي مثل هذه الظروف التي تحتشد فيها قُوى البغى والطغيان ، يتمسك الناس بدينهم ، ويرون فيه القوة والملاذ لمجابهة الخطر والتصدي له . . ومن هنا فقد شاعت في ذلك العصر وازدهرت الطرقُ الصوفية . . وكان «أبو الحسن الشاذلي» - مؤسس الطريقة الشاذلية - من الذين تَصَدَّوْا للهجمة الصليبية على دمياط برغم ذهاب بصره ؛ فذهب إلى دمياط لِيَحُثَّ النَّاسَ على الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الدين ، ورفع راية الإسلام ، والتصدي لهؤلاء الذين جاءوا من أوربا باسم الصليب طمَعًا في ثروات الشرق ، لا دفاعًا عن مبدأ أو عقيدة أو دين .

وقد أشاعت الطريقة الشاذلية جواً معطراً بأريج الروح، لما كانت تنادى به من العمل من أجل الآخرة دون أن ينسى الإنسان نصيبه من الدنيا، فقد كانت هذه الطريقة تعتمد على الكتاب والسنة، وترى في سلوكيات الرسول الكريم المثل الأعلى، دون أن تنجرف إلى تلك الشطحات التي تُبعد المرید عن الكتاب والسنة.

و«أبو الحسن الشاذلي» نفسه عندما اتخذ طريقه إلى التصوف، والتقى بأستاذه «عبد السلام بن مشيش» في مغارته التي يتعبد فيها بتونس، استمع إلى نصائحه، ومن هذه النصائح:

«أفضل الأعمال أربعة بعد أربعة:

ـ الأربعة: المحبة لله، والرضا بقضاء الله، والزهد في الدنيا، والتوكل على الله.

ـ والأربعة الأخرى: القيام بفروض الله، واجتناب محارم الله، والصبر عما لا يغني، والورع من كل شيء يلهي».

وقد تعرض «الشاذلي» للمؤامرات من قِبَل قاضي القضاة «ابن البراء» الذي كاد له عند السلطان، وأخذ يردد أمام منسامعه أن «الشاذلي» ما هو إلا جاسوس يعمل لصالح الدعوة الفاطمية، حيث إنه قادم من المغرب، ويقول إنه ينتسب إلى «فاطمة الزهراء»، وأن نسبه ينتهي إلى «الحسن بن علي» رضي الله عنه! وكانت محنة لـ «الشاذلي».

لقد جاء «الشاذلي» إلى مصر ليرى جواً ليس فيه مؤامرات ولا أضواء، بل إقبال من الناس على علمه، لورعه وتقواه. . وجاء معه إلى مصر «أبو العباس المرسى»، حيث استقرَّ بهما المقام في الإسكندرية. . وعاش

«الشاذلي» في برج من أبراج السور أوثقه عليه سلطان مصر . وكان دخوله مصر في عام ٧١٥ هـ .

هذا، وقد انتفع الناس في مصر بعلمه، وحديثه الحسن . ونشر فيها طريقته المُرُضية، وكثر تلاميذه فيها، وعلى رأسهم «العز بن عبد السلام». وكان إذا ركب تمشى أكابر الفقراء والصوفية حوله .

وقد وعى تلميذه «أبو العباس المرسى» دروس شيخه . . وكان «الشاذلي» يحب الطعام الجيد، والماء البارد . وكان يقول لـ «أبي العباس المرسى» :

- يا أبا العباس، اعرف الله وكُنْ كيف شِئْتَ .

وكان يبرر رؤيته تلك للحياة، والاستمتاع بما فيها باعتدال ودون سَرََفٍ، بقوله ناصحاً أحد مريديه :

- يا بني . . بَرِّدِ الماء، فَإِنَّكَ إِذَا شَرِبْتَ الماء الساخن فَقُلْتَ «الحمد لله» تقولها بكَرَازَةٍ^(١) . . وَإِذَا شَرِبْتَ الماء البارد فَقُلْتَ «الحمد لله» استجاب كل عضو فيك بالحمد لله .

ونعود إلى ما ذكرناه آنفاً فنقول : لقد اشترك الرجل في الحرب - برغم تجاوزه سن الستين وقد كُفَّ بصره - في المنصورة ضد الصليبيين، وهناك رأى رؤيا . . رأى الرسول عليه الصلاة والسلام، فاستبشر بنصر الله، وعاد إلى الثغر بعد هذه المعركة ليواصل سيرته في نشر الطريقة الشاذلية، وتربية أتباعه تربية إسلامية خالصة لا تخرج عن تعاليم الكتاب والسنة .

وفي سنة ٦٥٦ هـ، أراد «أبو الحسن الشاذلي» الحج . . فتوجه إلى ساحل

(١) بكَرَازَةٌ : أى بامتصاص وتغور .

البحر الأحمر، وعند «مهيترى» أحسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، فأخذ يُناجى ربه، ويُردِّدُ:
إلهى . . إلهى . . ثم صعدت روحه إلى بارئها، وغَسَلَهُ «أبو العباس
المرسى»، ودفنَ حيث مات، وكانت وصيته قبل موته :

— إذا مِتُّ فعليكم بـ «أبي العباس المرسى»، فإنه الخليفة من بعدى،
وسيكون له بينكم مقام عظيم، وهو باب من أبواب الله سبحانه وتعالى .

وتخرَّج «البوصيرى» في هذه المدرسة، وتلمذ على «أبي العباس المرسى»
الذى نشر في الثغر روح الطريقة الشاذلية، بها فيها من الحرص على تعاليم
الشرعية، وعدم الخروج عن السُّنة، والإكثار من ذكر الله، والحرص على
قراءة الأوراد.

و«المرسى أبو العباس» ولد في «مُرْسِيَّة»، وهى بلدة في «الأندلس»، وكان
ذلك في عام (٦١٦ هـ - ١٢١٩م)، وإليها يُنسب، وينتهى نَسَبُهُ إلى «سعد
بن عباد» سيد الخزرج . وعندما نزل إلى «تونس» تعرف على الإمام «أبى
الحسن الشاذلى» . . وهو يقص قصته مع «الشاذلى» والصوفية فيقول :

«لما نزلت بتونس سمعتُ بذكر الشيخ «أبى الحسن الشاذلى»، فقال لى
رجل :

— أتمضى بنا إليه ؟

فقلت : حتى أستخير الله تعالى !

فتمت تلك الليلة، فرأيتُ كأنى أُصعد إلى رأس جبل، فلما علوتُ فوقه،
رأيتُ هنالك رجالاً عليه «بُرُتُسٌ» أخضر، وهو جالس وعن يمينه رجل،
فنظرتُ إليه، فقال :

- عثرتُ على خليفة الزمان .

فانتبهتُ . فلما كان بعد صلاة الصبح ، جاءني الرجل الذي دعاني إلى زيارة الشيخ فسيرتُ معه . فلما دخلنا عليه رأيتُه بالصفة التي رأيتُه بها فوق الجبل ، فدهشت ! فقال لي :

- عثرتُ على خليفة الزمان . . ما اسمك ؟

فذكرت له اسمي ونسبي . فقال لي :

- رُفِعَتْ لي منذ عشر سنين .

ومن ثمَّ بدأت هذه الصلحة مع «الشاذلي» الذي أخذ يتعهد برعايته ليكون خليفته .

ومات «الشاذلي» ودُفن بِحُمَيْتِري بالصعيد وهو في طريقه إلى الحج بعد أن أوصى أن يكون خليفته «أبا العباس المرسى» كما ذكرنا من قبل .

وكان «أبو العباس» يقول :

- لي أربعون سنة ما حُجِبْتُ عن رسول الله ﷺ ، ولو حُجِبْتُ عنه طرفة عين ما عَدَدْتُ نفسي من جملة المسلمين .

وما أكثر ما رَوَّأ عنه من روايات حول كراماته .

في هذا المناخ الجميل الذي يستظل بهذه الروحانيات الجلييلة ؛ عاش البوصيرى . . وقد تشرب بهذا الأريج الروحي العطر الذي عايشه مع الشاذلية ، فأثر هذا العالم المملوء بالروحانيات السامية ، ووجد في هذه

الطريقة بُغِيته وغايته . . فهي التي أعانته على رؤية ومعرفة جوهر الحياة الدنيا، وأن هذه الحياة لا قيمة لها إلا بالزهد والتقوى وحب الله وحب رسوله ﷺ وآل بيته . . فزهد في هذه الدنيا، ووجد أن النور المحمدي سابق لكل الأنوار، وأن الاقتباس من هذا النور ما هو إلا صعود بروحه إلى سماء الجبال والجلال . . ومن ثمَّ كان هذا دافعاً له إلى نظم أجمل القصائد في مدح الرسول، لأنَّ مَدْحَ الرسول فيه تقربٌ إلى الله . . فالذات المحمدية لها تجلياتها ومكانتها الروحية السامية .

وربما كان دافعه إلى ذلك أيضاً ما وجده في أثناء الحروب الصليبية من محاولة من جانب أعداء الإسلام لهذم الإسلام، وقتل بنيه وأهله .

كَرَّسَ «البوصيري» قلمه للرد على اليهود والنصارى بعد أن قرأ الإنجيل والتوراة قراءة متأنية، وكتب قصيدة في مائتين واثنين وسبعين بيتاً أطلق عليها «المُخَرَّج والمردود على النَّصَارَى واليهود». . . يبين فيها كيف أن اليهود والنصارى غَيَّرُوا وَبَدَّلُوا في الإنجيل والتوراة، لأن الرسول الكريم بَشَّرَتْ به كُتُب السماء. يقول «البوصيري» شارحاً هَدَفَهُ من هذه القصيدة :

« لما رأيتُ كُتُبَ النصارى واليهود الآن مشحونة بها ينكرونه من بعث النبي ﷺ، وفيها القول بخلاف ما يدَّعون من ألوهية المسيح وصلبه، وإثبات رسالته إلى النصارى واليهود، وما لا يحقُّ . . . تعرضتُ في هذه القصيدة إلى ذكر ما سهَّلَ نَظْمُهُ من ذلك، وأردتُ أن أورد تحت كل أبياتٍ منها ما أشارت إليه من النصوص التي لا يستطيع النَّظْمُ ذكرها بلفظها وترتيبها» .

وفي هذه القصيدة أخذ يتحدث عن الرسول الكريم ومواقفه ومعجزاته وانتصاراته. يقول فيها :

ما زال يَرْقَى في مَوَاهِبِ رَبِّهِ
وَيَنَالُ فَضْلًا مِنْ لَدُنْهُ جَزِيلًا
فَلَوْ اسْتَمَدَّ الْعَالِمُونَ عُلُومَهُ
مَدَّتْهُمْ الْقَطَارُثُ مِنْهُ سَبِيلًا

ونظم «دالية» في سنة ٦٥٤ هـ، وكان ذلك بمناسبة احتراق سقف الحرم
النبي الشريف، يرد فيها على شتاة الأعداء، ويتحدث عن النبي ﷺ
ومدرسته وتلاميذه من الصحابة، ويشيد بمناقب أعظم رُسل الله . يقول
فيها:

إِنْ جَاءَ بَعْدَ الْمُرْسَلِينَ فَفَضْلُهُ
مَنْ بَعْدَهُ جَاءَ الْمَسِيحُ وَنُوحُ
حَارَتْ عُقُولُ النَّاسِ فِي أَوْصَافِهِ
وَبَلَدَتْ، وَلَهَا بِهَا تَنْقِيحُ
أَنِّي يُكَيِّفُهَا امْرُؤٌ وَيُجَدِّدُهَا
بِالْقَوْلِ وَهِيَ لَدَا الْوُجُودِ الرُّوحُ

هذا، وقد نَظَمَ قصيدة «لامية» يحاكي بها قصيدة «كعب بن زهير» التي
قالها في مدح الرسول ﷺ، وسمَّى هذه القصيدة التي عَارَضَ بها «كعبًا»:
«ذُخْرُ الْمَعَادِ»، ونَظَمَهَا على بحر «بَاسْتِ شَعَادِ»، واستهلها بقوله:

إلى متى أنتِ باللَّدَاتِ مشغُولُ
وأنتِ عن كلِّ ما قَدَّمْتَ مَسْئُولُ
في كلِّ يومٍ تُرَجِّى أنْ تُتَوَّبَ غَدًا
وَعَقْدُ عَزْمِكَ بِالتَّشْوِيفِ مَحْلُولُ

يقول الدكتور «شوقي ضيف» عن هذه القصيدة :

«واضح أنه عَدَلٌ في مقدمة مدْحَتِهِ عن العَزَلِ الذى استهمل به «كعب» مدحته، وكأنه أراد أن يُصَمِّنَهَا مقامات طريقته الشاذلية . وهو يبدوها بمقام «التوبة»، أو بعبارة أخرى : بمقام «الفرار من المعاصى والالتجاء إلى الله»، وهو أول مقام من مقامات الطُّرُق الصوفية جميعًا، ولابد أن يتوب السالك في هذا المقام من معاصيه توبةً نَصُوحًا، تُعَدُّه لما بعدها من مقامات، مَضَى «البوصيرى» بصورها عند الشاذلية في صورٍ من الزهد في متاع الحياة، والعمل الصالح من العبادة، والإذعان لمشيئة الله، والإنابة إلى وجهه . . . حتى إذا استوفى ذلك أعلن التَّكْبِيرَ على مَنْ ضَلُّوا طريق الهدى من المَعْطَلَّة والمُشْرِكِينَ واليهود والنَّصَارَى، وأخذ يَشِيدُ بالإسلام ورسوله، مُصَوِّرًا فيه أزلية الوجود المحمدى المعنوى، الذى هو حقيقة «محمد» وروحه، والذى يفيض على جميع الكائنات منذ الخلق ومنذ كان الأنبياء . . . وهو بذلك يسبق وجوده الحسى حين بُعث إلى الخلق بشيرًا ونذيرًا، وجودٌ معنوى إلهى يستمد منه كلُّ موجود . . . استمد منه الأنبياء منذ «آدم» وما زال جوهره يتعاقب فيهم من بعده إلى زمان محمد ﷺ حين اتحد وجوده الباطن بالوجود الظاهر، وهو النبوة المحمدية . . . أو قُلْ حين اتحد المعنى والصورة : معنى الحقيقة المحمدية الأزلية، وصورة الإنسان الكامل . وفى ذلك يقول «البوصيرى» :

محمّد حجّة الله التي ظهرت
بسنة ما لها في الخلق تحويل
من كمل الله معناه وصورته
فلم يقفه عن الحالتين تكميل
من آدم ولحين الوضع جوهره الـ
مكونون في أنفيس الأصداف محمول
فللنبوة إتمام ومبتدأ
به، وللفخر تعجيل وتأجيل.

ونراه يتحدث عن معجزاته، ومنها معجزة القرآن الكريم، ويرد على
المنكرين للدعوة، ويحدثنا عن جهاده العظيم، وصحابته الكرام الذين وقفوا
بجانب الدعوة حتى تحقق نصر الله .

وتمضى الأيام بـ «البوصيرى» ، ويتوق إلى أداء فريضة الحج وزيارة قبر
الرسول ﷺ . وعندما يتحقق له ذلك الأمل الذي كانت تهفو إليه نفسه ،
ينظم توبيته التي يصور فيها الحقيقة المحمدية، والتي يقول فيها :

كان سرّاً في ضمير الغيب من
قبل أن يُخلق كَوْنٌ أو يكونَا
تشرق الأكوأ من أنوارِه
كلما أودعها الله جبينَا

وكالعادة . . يبتنا في هذه القصيدة أشواقه لصاحب الرسالة العظيم،
ويرد على المنكرين لدعوته، مُشيدًا بعظمة شأنه عليه الصلاة والسلام .
وعندما عاد من الحج، يشدُّ الحنين إلى أن ينظم «هَمَزِيَّتُهُ» في أربعائة
وخمسين بيتاً، وسماها «أُمُّ الْقُرَى في مدح خَيْرِ الْوَرَى» . . . وهى قصيدة من
أَجَل ما نَظَّم في مدح الرسول ﷺ في كل العصور، والتي مطلعها :

كَيْفَ تَرَقَّى رُؤْيَاكَ الْأَنْبِيَاءُ

يا سماء ما طاولَتْهَا سماءُ

لم يُسأُوكْ في عَمَلِكَ وَقَدْ

حَالَ سَنًا مِنْكَ دُوتَهُمْ وَسَنَاءُ

وهو في هذه القصيدة يتحدث كعادته عن النور المحمدى، والمعجزات
التي تحققت على يديه، والانتصارات التي حازها، وكأنه في هذه القصيدة
يحث النَّاس في عصره على الجهاد، والاقتداء بأعظم رُسُل الله في جهاده
العظيم، حتى انتشر نور الإسلام . ومن خلال أبيات هذه القصيدة نرى كم
كان الرجل شديد الحب للرسول الذى تهفو إليه روحه دائماً ، والتي كانت
متطلعة إلى النور المحمدى على الدوام .

عاش «البوصيري» حياته زاهدًا . . عابدًا . . متصوفًا . . تدفعه الأشواق والحب للرسول إلى أن ينظم قصائد في مدحه، فنظم أجمل وأروع قصائده : «البردة»، أو «البُرَّة» كما يُسميها البعض الآخر، لأنه برًّا بفضلها من الشلل عقب رؤيته للرسول في المنام وإلقائه برُده عليه ﷺ .

وهذه القصيدة بلغ «البوصيري» بها القمة في الشعر، فالقصيدة بالغة العذوبة، بالغة الشفافية والجمال، فيها إحساس حقيقي وعميق بحب الذات المحمدية، والتي يبدوها بقوله :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِرَانٍ يَذِي سَلَمٍ

مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مَقْلَةٍ يَدَمٍ

ثم يمضي في قصيدته التي بلغت من جلالها وتأثيرها في الناس أن تُرجمت إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وعَارَضَهَا أميرُ الشعراء «أحمد شوقي» في قصيدته «نَهْجُ البردة»، والذي اعترف أنه لا يبلغ في هذه القصيدة ما بلغه «البوصيري»، فقال :

المَادِحُونَ وَأَرْبَابُ الْهَوَى تَبَعُ
لِصَاحِبِ الْبُرْدَةِ الْفَيْحَاءِ ذِي الْقِدَمِ
اللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّنِي لَا أَعَارِضُهُ
مَنْ ذَا يُعَارِضُ صَوْبَ الْعَارِضِ الْعَرِمِ؟

والقصيدة مملوءة بالحكم، والنظرة الواعية للحياة، وما يجري فيها من
الأحداث. استمع إليه وهو يتحدث عن النفس، وكيف يمكن تقويمها،
وحنثها على السير في طريق الله، ونهيبها عن الهوى ومساية الشيطان. يقول
البوصيرى:

وَالنَّفْسُ كَالطُّفْلِ، إِنْ تُهْمِلَهُ شَبَّ عَلَى
حُبِّ الرِّضَاعِ، وَإِنْ تَقْطَعُهُ يَنْفَطِمِ
كَمْ حَسَنَتٍ لَذَّةٌ لِلْمَرْءِ قَاتِلَةٌ
مَنْ حَيْثُ لَمْ يَذِرْ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ
وَحَالَفَ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَأَغْصَبَهَا
وَإِنْ هُمَا تَخَصَّصَاكَ النَّصْحَ فَاتَّبِعْهُمَا

ويمضي في قصيدته متحدثاً عن زهد الرسول ﷺ، وعن مكانته العالية
عند ربه، ونوره الذي تجلّى في الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين.
ويحدثنا عن معجزاته، والإرهاصات التي ظهرت عند مولده من تصدّع
إيوان كِسْرَى، وانطفاء نار المجوس، ومولده، ومبعثه، وهجرته عليه الصلاة
والسلام، حيث خرج من بين مكة التي أرادت أن تغتاله سالماً، ويحتجىء هو

والصديق في الغار، ويعشش العنكبوت على باب الغار، وترقد أمامه حمامة،
فيرجع مطارده من حيث أتوا، ويحفظه الله سبحانه وتعالى .

ثم يتحدث عن القرآن معجزة الرسول الكبرى فيقول :

رَدَّتْ بِلَاغَتِهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا

رَدَّ التَّيُّورُ يَدَ الْجَائِي عَيْنِ الْحَرَمِ

لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ

وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيَمِ

لَا تَعْجِبَنَّ لِحُسُودِ رَاحٍ يُنَكِّرُهَا

تَجَاهُلًا وَهُوَ عَيْنُ الْحَاذِقِ الْفَهْمِ

قَدْ تُنَكِّرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ

وَيُنَكِّرُ الْقَمُّ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ

وَيَمْضَى مُصَوِّرًا شَجَاعَةَ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ ، حيث برزت شجاعته
وشجاعة الصحابة وهم يخوضون حروبهم ضد أعداء الله ، وكأنه بذلك
يستنهض الهمم أمام المسلمين ليفعلوا ما فعل الرسول وأصحابه ، ويردُّونَ
الصليبيين على أعقابهم ، وذلك بإعلان الجهاد عليهم ، والموت في سبيل
تحرير أرض المسلمين من هؤلاء الذين جاءوا من أوروبا باسم الصليب لينهبوا
ثروات المسلمين ، ويستولوا على أراضيهم ، ويحققوا أطماعهم الدينية تحت
ستار الدفاع عن المقدسات المسيحية .

ونمضي مع هذه القصيدة الرائعة، لنجد «البوصيري» مستعطفًا الرسول
ألاَّ يتخلَّى عنه لو ارتكب إثماً، فإن اسمه «محمد» كاسم الرسول عليه الصلاة
والسلام :

فإنَّ لى دِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَّتِي

محمداً وهو أوفى الخلق بالذِّمِّ

وكلمًا نمضي في قراءة القصيدة تتداعى إلى الذهن تلك الفترة الذهبية في
تاريخ الإسلام، فترة حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، ودعوته إلى الإسلام
وجهاده العظيم في سبيله، وكيف كوّن مدرسة تخرّج فيها الصحابة الأبطال
أصحاب المواقف، الذين وقفوا بجانب الرسول وهو يُجابه الأخطار، حتى
انتصر الحق وزهق الباطل .

ويتحدث «البوصيري» من خلال هذه التريمة العذبة التي تشدنا إلى
زمن الرسالة، حاثًا المسلمين في عصره - أي «البوصيري» - إلى اقتفاء أثر
الرسول في جهاده، حتى يزيلوا الهجمة الصليبية عن بلاد الإسلام، ويبددوا
سُحبها الفاتمة عن سماء بلادهم، وبعد ذلك يتجه بكل كيانه إلى الله العلى
القدير حتى يشملهم برحمته قاتلاً :

يا أكرم الخلق مالى مَنْ ألُوذُ بِهِ

سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعِيمِ

ولن يضيّقَ رُسُولَ اللَّهِ جَاهُكَ بى

إِذَا الْكَرِيمُ تَجَلَّى بِاسْمِ مُنْتَقِمِ

يا نَفْسُ لا تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ
إِنَّ الْكِبَائِرَ فِي الْغُفْرَانِ كَاللَّمَمِ
لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا
تَأْتِي عَلَى حَسَبِ الْعُضَيَّانِ فِي الْقِسْمِ
يَا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ
لَدَيْكَ ، وَاجْعَلْ حِسَابِي غَيْرَ مُنْخَرِمٍ
وَالطُّفْ بِعَبْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ إِنَّ لَهُ
صَبْرًا مَتَى تَدْعُهُ الْأَهْوَالُ يَنْهَزِمِ
وَأُذَنْ لِسُحْبِ صَلَاةٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ
عَلَى النَّبِيِّ بِمُنْهَلٍ وَمُنْسَجِمِ
مَا رَزَّحَتْ عَذَابَاتِ الْبَيَانِ رِيحَ صَبَا
وَأَطْرَبَ الْعَيْسَ حَادِي الْعَيْسِ بِالنَّعَمِ

إن هذه القصيدة الجميلة تنفذ إلى العقل والقلب بسهولة ويسر، لما فيها من معانٍ جميلة، وموسيقى تهز النفس، حتى إنها أصبحت تُنشَدُ في حلقات الذكر حتى يومنا هذا .

وهذه القصيدة لجمالها عاشت في ضمير الأجيال، وعَارَضَهَا الشعراء . . ونهَجَ على نهجها في المدائح كثيرون، منهم «محمود سامي البارودي» في قصيدته الطويلة «كشف الغمّة في مدح سيّد الأُمّة»، والتي قدّم لها بقوله :
« حَمْدُ اللَّهِ لِدَلَاتِهِ آيَةُ الْإِيمَانِ وَالْإِحْلَاصِ ، وَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ مَحَجَّةُ الْخَلَاصِ ، وَبَعْدَ . .

فهذه قصيدة ضَمِنَتْهَا سيرةُ النَّبِيِّ ﷺ من حين مولده الكريم إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه، وقد بَيَّنَّتْهَا على سيرة «ابن هشام»، وَسَمَّيْتُهَا «كشف الغمّة في مدح سيّد الأُمّة»، وَرَغَبْتِي إِلَى اللَّهِ أَنْ تَكُونَ لِي ذَرِيعَةً أُمْتُ (يعني : أتوسّلُ) بِهَا يَوْمَ السَّعَادِ، وَوَسَّلًا إِلَى النِّجَاةِ مِنْ هَوْلِ الْمَحْشَرِ، اللَّهُمَّ فَحَقِّقْ رَغَبَتِي إِلَيْكَ، وَأَكْشِفْهَا بِفَضْلِكَ رَوْقَ الْقَبُولِ . . آمين» .

ومطلع قصيدة «البارودي» :

يا زائدَ البرقِ يَمِّمُ دَارَةَ الْعَلَمِ

وَإِخْذُ الْغَمَامِ إِلَى حَيِّ يَذِي سَلَمِ

وهذه القصيدة الجميلة التي كتبها «البارودي» في أثناء محنة النفي في «جزيرة سيلان» يَمِّمُ فيها هو الآخر وجهه صَوَّبَ مديح الرسول عليه الصلاة والسلام، ليجد في هذا المديح الصبر والسلوان، والخروج من محنة النفي هذه.

ويرى الدكتور «سعد ظلام» وهو يقدم قصيدة «البارودي» مستعرضاً الذين سبقوه في المديح - وعلى رأسهم «كعب بن زهير» و «البوصيرى» - أن «فضل البوصيرى» أنه انتشل هذا الفن الشعري - يقصد فن المديح - من براثن الحيرة والقلق، والاضطراب، والصراع، والاحتجاج، وخَلَّصَهُ من التضاريس السياسية، ومَهَّدَ له الطريق، وسَكَبَ عليه سكبته الروح، وصفاء النفس، ووضاعة الخشوع والتبُّتُّل، وأعطاه الأمان الذي كان يريجه، والأمن الذي ظل ينشده، والطمأنينة التي فقدوها. وهذا الفضل ليس بالقليل على آية حال».

ويمضي مستطرذاً في الحديث عن فضل «البوصيرى» في هذا المجال قائلاً:

«لقد كان صوفيّاً، ووليّاً من أولياء الله... فأضفى عليه من عبير الصوفية وجلالها ونورها وخشوعها المطمئن ما أشرق به النفس، وجعلها تهفو وتترنم».

وكان في اختياره الوزن على البحر البسيط - أو بعبارة أصح: كان في إثارة النظم عليه - ذكياً لَمَّا حَا، فسارَ الفنَ وصارَ، وشاعَ وذاعَ، وقَوَّى من سيرورته

وصبرورته، وشُيوعه وذُيوعه، أحوال الصوفيّة ومَوَاجِدْهم، وأشواقهم الدائمة إلى الحضرة المحمدية، لا سيما و «البوصيرى» ناظم البردة إمامٌ وويّ له أتباع وأحباب، ومريدون وسالكون. يُضاف إلى ذلك ما أثارَ حول نَظْمِها من كرامات الشفاء والإبلال، وإلباس الرسول له بُرْدَة العافية.

ويبدو أن «البوصيرى» كان مُخْلِصًا فيما نظم، يصدر عن حُبٍّ صادق، وقلب خاشع منيب، محبٌ إلى أبعد الحدود، يودُّ القُرْبَ، ويجوم كالقراش حول ابتهاج النور، فصادف قلوبًا عاشقة، وتَمَكَّنَ منها غاية التمكن، وغَدَبَ الهوى الصوفيَّ الأهواءَ، فانسجمت مع اللحن الوَضِىء، وشربت من النبع الصّافي، وأثْبَلَتْ فانتشت، والتقت معه تعزف على نفس القيثارة، وتنغم ذات اللحن، وترنم ذات الوتر، مُبْتَغِيَّةُ القُرْبِ كما ابتغى، وعاشقةُ الرضا كما عشق، وحالمةُ بالوصل كما حلم ^(١).

ويتحدث عن الظروف السياسية والاجتماعية في العصر المملوكى والحروب الصليبية، وأثر كل ذلك في اتجاه شعر المديح الذى كثر حتى أخذ طابع الظاهرة، وشكل الشكوى، وكأنها تستغيث وتتوسل بعد أن أحاطت بالأمّة الجوائح، وانقلبت عليها الأحداث. ويرى أنه إذا كانت المدائح قبل «البوصيرى» قد تعثرت بالسياسة، وتلوّنت بألوانها، فإنها قد تعثرت بعده بما سيطر على الأدب من غرام بالبديع، ولولوع بالمحسنات والزخرف اللفظي، حتى تلاشى الخفق الذكي للأدب أو كاد، وتوارى نبضه المتبصر، واختفى أواره السامى وتوهجه، وخبا اشتعاله، وحلّفَ رمادًا وركامًا.

ولأن شعر «البوصيرى» - وخاصة البردة - كان له تأثير قوى على الشعراء

(١) من المدائح النبوية، ج ٢، كشف الغمة في مدح سيد الأمة، ص ٦، تقديم الدكتور سعد ظلام.

فيما بعد، فإن أبرز مَنْ تأثر بالمديح - كما قلنا - هو الشاعر الكبير «محمود سامي البارودي»، وأمير الشعراء «أحمد شوقي» عندما كتب «نهج البردة». . والغريب أن شعر «البوصيري» في غير المدائح النبوية كان شعراً ضعيفاً، أو على حد تعبير الشاعر «علي الجارم» في شرحه لـ «شوقي»: .

« وشعر البوصيري في غير المدائح النبوية ضعيفٌ خائر، ولكنه في البردة والهمزية يخلق إلى أبعد أفق في البلاغة، وجمال الروعة، وسُمُو العاطفة. . مما يحملنا على الاعتقاد بأن الرجل كان شديد التأثر بجلال المقام الذي يقول فيه، وأن روحه وحدها هي التي كانت تتكلم، وأن نعمةً نورانيةً غمرت، فتلقف وحيها، ونطق بلسانها » .

ويقول عن «البردة» كشاعر يحس بمعنى الشعر الجيد :

« وقد خلقت البردة فناً جديداً في الشعر هو فن «البديعيات»، ذلك أن الشعراء أخذوا يُعارضونها مع التزام نوعٍ بديعي في كل بيت، وأشهر هؤلاء «صفى الدين الحلبي» و«عز الدين الموصلي» و«ابن حجة الحموي»، وعارض البردة في العصر الحديث «البارودي» فأحسن وأجاد كعادته .

وحين حجَّ «الخدوي عباس الثاني» سنة سبع وعشرين وثلثمائة وألف (١٣٢٧ هـ)، نظم أمير الشعراء «أحمد شوقي» قصيدته التي سماها «نهج البردة»، وجعلها تذكيراً لهذه الحجة .

وشعر «شوقي» رائع كله، ولكنه في هذه القصيدة أبدع وأروع، فإن الذي يقرأها يشعر بأن الفن إذا اتصل بالصوفية النقية الصافية كان وحيًا من الوحي، وهمسًا من الإلهام .

وهذه القصيدة بدأها «شوقي» بقوله :

رَيْمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ
أَحَلَّ سَفَكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ
لَمَّا رَمَا حَبَّتْنِي النَّفْسُ قَائِلَةً
يَا وَنَحْ جُنُكَ بِالسَّهْمِ الْمُصِيبِ رُمِي
جَحَدْتُهَا وَكَتَمْتُ السَّهْمَ فِي كَيْدِي
جُرُحُ الْأَحْيَةِ عِنْدِي غَيْرُ ذِي أَلَمِ
يَا لَا يَمِي فِي هَوَاهُ وَالْهَوَى قَدَرٌ
لَوْ شَفَّكَ الْوَجْدُ لَمْ يَغْزِلْ وَلَمْ تَلَمِ
لَقَدْ أَتَلْتُكَ أَذُنًا غَيْرَ وَاعِيَةٍ

وَرُبَّ مُتَنَصِّبٍ وَالْقَلْبُ فِي صَمَمِ

إلى آخر أبيات تلك القصيدة التي تُعدُّ من أجمل قصائد أمير الشعراء «أحمد شوقي». ولكن عندما نقارن بينها وبين «البردة» التي كتبها «البوصيرى»؛ نجد أن «البوصيرى» قد كتبها في حالة حب صوفي خالص، مما أضفى على القصيدة نوعاً من الروحية واستشعار الجمال، أكثر مما نراه في قصيدة «شوقي»، ذلك لأن الشحنة الانفعالية عند «البوصيرى» أقوى وأعمق... على عكس ما نراه في قصيدة «شوقي»، حيث نلتقي بجمال اللفظ، وتناغم الموسيقى، ولكن قصيدته لا تحمل عمق المشاعر التي يكنها «البوصيرى» لصاحب الرسالة علياً الصلاة والسلام، وقد اعترف بذلك «شوقي» نفسه عندما قال :

الْمَادِحُونَ وَأَرْيَابُ الْمَسْوَى تَبَعُ

لِصَاحِبِ الْبُرْدَةِ الْفَيْحَاءِ ذِي الْقَدَمِ

اللَّهُ يَشْهَدُ أَنِّي لَا أُعَارِضُهُ

مَنْ ذَا يُعَارِضُ صَوْبَ الْعَارِضِ الْعَرِمِ

فهو يعترف بأنه لا أحد بعد «البوصيرى» يستطيع أن يبلِّغ ما بلغه «البوصيرى» من إجادة في هذه القصيدة الخالدة .

ومهما يكن من شيء، فقد كان «البوصيرى» إماماً متصوفاً، له أنصاره وله مريدوه . ولحيه الشديد لصاحب الرسالة - عليه الصلاة والسلام - أُلْهِمَ أَجْمَلُ الْقَصَائِدِ الَّتِي خُلِّدَتْ عَلَى الْأَيَّامِ .

هذا، وستظل هذه القصائد تتناقلها الأجيال كلما ذُكر النبيُّ الخاتم عليه الصلاة والسلام، وكلما ترنَّم بذكره المؤمنون، فهو في قلب الأمة وعقلها إلى أن يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .

وسوف تَحُلُّدُ قصائد «البوصيرى» في مدح الرسول لأنها في مدحه ﷺ، ولأنها أيضاً قصائد جميلة المضمون، رائعة المعنى، عذبة الجرس، قوية المعنى .

لقد مضت أيام «البوصيرى» عن دُنْيَانَا، ومضى هو كما يمضي كل الناس . . وَرَحَّلَ إِلَى جَوَارِ رَبِّهِ فِي عَامِ ٩٦٥ هـ، ودُفِنَ فِي الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ .

ومسجد الإمام «البوصيرى» بمدينة الإسكندرية في مواجهة مسجد

سيدى «أبى العباس المرسى»، أى إنه - على حد تعبير الدكتور «سعاد ماهر» - «جَاوَزَ أَسْتَاذَه فى حَيَاتِه وَمَمَاتِه» .

وكان المسجد فى الأصل زاوية صغيرة، ثم توالى عليها يد الإصلاح والترميم والزيادة حتى وصلت إلى شكلها الحالى .

لقد كان «البوصيرى» صوفيًا عظيمًا، وكان أيضًا شاعرًا عظيمًا . . كما كان مُحِبًّا عظيمًا، ومادحًا أعظمَ لخاتم الأنبياء والمرسلين . رَجَّهَ الله تعالى، وطَيَّبَ ثراه .

ها نحن قد عشنا مع شاعر عظيم في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو الإمام «البوصيري»، الذي نبغ في هذا المجال لدرجة لم يستطع أن يُباريه في ذلك شاعر في عصره، أو بعد عصره. . . وذلك لسبب بسيط جداً، هو أنه لم يكن يتكلف هذه القصائد، ولم يجز وراء زُخرف القول، ولم يتصنع هذا الشعر، وإنما جاء هذا الشعر تعبيراً عن أشواق حقيقية، وحبّ حقيقى للنبي الخاتم عليه الصلاة والسلام. . .

إنه حُبٌّ مَلَكَ عليه جوانب نفسه، وتغلغل في أعماقه، نتيجة اتجاه صوفي نبيل يرى أن الحياة ما هي إلا جِسْرٌ لعالم خالد، وأنها لا تساوى شيئاً، وليس هناك ما يعادل حب الله وحب الرسول ﷺ. . . فالله هو خالق الوجود وواهب الحياة. . . والرسول الكريم هو المبلِّغ عن ربه آخر رسالاته إلى الناس.

وإذا كان «البوصيري» قد تصوّف على طريقة شيخه «أبي العباس المرسى» تلميذ الإمام «الشاذلي»، فقد كان هو شاعر هذه الطريقة، والمعبر عن مواجدها. ومن هنا فقد أنشدوا معظم ما نَظَّمَهُ هذا الشاعر في مدح الرسول في أذكارهم. . .

أقول: إذا كان «البوصيري» هو شاعر الطريقة الشاذلية في عهد شيخه «أبي العباس المرسى»؛ فإن «النَّائِر» بلا شك هو «ابن عطاء الله

السكندري»، تلميذ «أبي العباس المرسى» أيضًا، والذي كتب نثرًا بالغ الجلال في حُبِّ الدَّاتِ الإلهية، حتى إن كثيرًا من الدارسين لهذه الفترة من حياة التصوف الإسلامي كانوا يقولون: إن «البوصيرى» هو شاعر الطريقة، وإن «ابن عطاء الله» هو «النائر» الذي عَبَّرَ من خلال النثر عن مواجده وتَصَوُّفه.

ومن طريف ما يُذكر أن جَدَّ «ابن عطاء الله» - وقد كان فقيهاً مشهوراً بالإسكندرية - كان معترضاً على الطريقة الشاذلية، وكان حفيده «ابن عطاء الله» هو الآخر معترضاً على الصوفية، ولكنه عندما التقى بالشيخ «أبي العباس المرسى» غيَّرَ رأيه، وأصبح واحداً من تلاميذه! وقد سجل ذلك الاعتراف بقوله:

«... وكان سبب اجتماعي به (أى بأبي العباس المرسى) أن قُلْتُ لنفسي - بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل: دَعْنِي أذهب أنظر إلى هذا الرجل، فصاحب الحق له أَمَارَات، ولا يَخْفَى شأنه. . فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أَمَرَ الشَّارِعُ بها، وعلمتُ أن الرجل إنما يعترف من فَيْضِ الهَيْئِ، فَأَذْهَبَ اللهُ ما كان عندي».

أمَّا الذي كان عند «ابن عطاء الله» - كما يقول الرواة - فإحساسه بأزمة نفسية اجتاحت نفسه عندما أنكر على الشيخ «المرسى» . . حتى إذا رآه وسمعه اطمأن قلبه إلى الشيخ وطريقته.

هذا، وقد أَلْفَ «ابن عطاء الله» الكثير من الكتب في النحو، والمنطق، والفلسفة، والتصوف. . منها: «التنوير في إسقاط التدبير»، و«الحِكْمُ العطائية»، و«لطائف المنن»، و«القَصْدُ المجرَّد في الاسم المفرد». . وغيرها.

ومن كلامه الجميل فى الحِكَم العطائية :

- من تمام النعمة عليك أن يرزقك الله ما يكفيك ويمنعك ما يُطغيك .
- العطاء من الخلق جرمان ، والمنع من الله إحسان .
- إذا أَرَدْتَ ألا تُعْزَلَ فلا تَتَوَلَّ ولاية لا تدوم لك .
- معصية أُوْرثت ذُلًّا وافتقارًا ، خير من طاعة أُوْرثت عِزًّا واستكبارًا .
- .. وغير ذلك من الحِكَم .

إنه كلما ذُكِرَ «البوصيرى» يُذكر «ابن عطاء الله السكندرى»، وكلما ذُكر «ابن عطاء الله السكندرى» يُذكر «البوصيرى»، لا لشيء إلا لأن كليهما كانا تلميذين لـ «المرسى أبى العباس» . . ولأن كليهما عرَفَ الحبَّ الصوفى الخالص . . ولأن كليهما خَلَدَ عمله الإبداعى : «البوصيرى» فى الشعر ، و«ابن عطاء الله» فى النثر .

نعم . . سيظل الحبُّ الإلهى ، والنورُ المحمدى ، مُصَدِّرَى إلهامٍ لمن يعرف طريق التصوف ، إلى أن يرث الله الأرضَ ومنَ عليها .

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِرَانٍ بِذِي سَلَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ
فَمَا لِعَيْنِكَ إِنْ قُلْتَ اكْمُفَا هَمَّتَا
أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحُبَّ مُنْكَرَتِمُ
لَوْ لَا الْهُوَى لَمْ تُرْفِقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ
فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدْتَ
وَأَثَبْتَ الْوَجْدَ خَطِئَ عَبْرَةً وَضَيَّ
نَعَمْ سَرَى طَيِّفٌ مَنِ الْهُوَى فَأَرْقَنِي
بِالْإِيْمَى فِي الْهُوَى الْعُذْرَى مَعْدَرَةً
عَدَّتْكَ حَالِي لَا يَسْرَى بِمُسْتَتَرٍ
مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ
وَأَوْمَضَ التَّبْقُ فِي الظُّلْمَاءِ مِنْ إِضْمٍ^(١)
وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ اسْتَقْبَقِي بِهِمْ
مَا بَيْنَ مُنْجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَّعٍ
وَلَا أَرَفْتَ لِذِكْرِ الْبَيَانِ وَالْعَلَمِ^(٢)
بِهِ عَلَيْكَ عُذُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ
مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدَّيْكَ وَالْعَنَمِ^(٣)
وَالْحُبِّ يَغْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِالْأَلَمِ
مِنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلْسِمِ
عَنِ الْوُثْقَاةِ وَلَا دَائِي بِمُنْجِسِ

(١) « كاظمة » اسم مكان ؛ وكذلك « إضم » .

(٢) البان : شجر طيب الرائحة .

(٣) العنم : شجر أحمر الأغصان .

مَحْضَتِي النَّصْحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ
إِنِّي أَتَمَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلٍ
فَإِنَّ أَمَارَتِي بِالشُّوْءِ مَا أَتَّعَظْتُ
وَلَا أَعَدْتُ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوقِرُهُ
مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا
فَلَا تَزِمُ بِالْمَعَاصِي كُنْزَ شَهْوَتَيْهَا
وَالنَّفْسُ كَالطُّفْلِ إِنْ تُهْمِلَهُ شَبَّ عَلَى
فَاضِرٍ هَوَاهَا وَخَازِرٍ أَنْ تُؤَلِّيَهُ
وَرَاعِيهَا وَهِيَ فِي الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ
كَمْ حَسَنَتْ لَذَّةُ الْمَرْءِ قَابِلَتُهُ
وَإِخْسَ الدَّسَائِسِ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ
وَأَشْتَقِرِغِ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنٍ قَدْ امْتَلَأَتْ
وَتَخَالِفُ النَّفْسُ وَالشَّيْطَانُ وَاعْصِيهِمَا
وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمَا خَصْماً وَلَا حَكْماً
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلٍ بِلا عَمَلٍ
أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا اتَّمَرْتُ بِهِ
وَلَا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً

إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُدَالِ فِي صَمِّ
وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نَصِيحٍ عَنِ الشُّهْمِ
مِنْ جَهْلِهَا يَنْذِيرُ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
ضَيْفُ أَلَمٍ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ
كَتَمْتُ سِرّاً بَدَا لِي مِنْهُ بِالْكَتَمِ
كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّجَمِ
إِنَّ الطَّعَامَ يُقَوِّى شَهْوَةَ النَّهْمِ
حُبُّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطُّنُهُ يَنْقُطِمِ
إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُضْمِمْ أَوْ يَصِمِ
وَإِنْ هِيَ اسْتَخَلَّتِ الْمَرْعى فَلَا تَسِمِ
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَنْذِرْ أَنَّ الشُّمَّ فِي الدَّسَمِ
قَرُبَتْ تَحْمِصَةُ شَرٍّ مِنَ التُّخَمِ
مِنْ الْمَحَارِمِ وَالزَّمْ جُنْبَةَ النَّدَمِ
وَإِنْ هُمَا مَحْضَاكَ النَّصْحَ فَاتَّبِعِ
فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ
لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِيذَى عُقْمِ
وَمَا اسْتَقَمْتُ قَبْلَ قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ
وَلَمْ أَصِلْ سِوَى فَرْضِ وَلَمْ أَصِمِ

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَى أَنْ أَشْتَكَّ قَدَمَاهُ الْقَرَّ مِنْ وَرَمٍ
وَسَدَّ مِنْ سَعَبٍ أَحْشَاءَهُ وَطَوَى وَرَاوَدْتُهُ الْحِبَالُ الشُّمَّ مِنْ ذَهَبٍ
وَأَكْدَتْ زُهْدَهُ فِيهَا ضُرُورَتُهُ إِنَّ الضَّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى الْعِصَمِ
وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضُرُورَةٌ مَنْ لَوْلَاهُ لَمْ تُخْرِجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ
مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ وَالْثَّقَلَيْنِ وَالْفَرِيقَيْنِ مِنْ عَرْبٍ وَمِنْ عَجَمٍ
نَبِيُّكَ الْإِمْرُ النَّاهِي فَلَا أَحَدٌ أَبْرَرَ فِي قَوْلٍ «لَا مِنْهُ وَلَا نَعَمٌ»^(٤)
هُوَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ لِكُلِّ هَوَلٍ مِنَ الْأَهْوَالِ مُقْتَنِمٍ
دَعَا إِلَى اللَّهِ فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلِ غَيْرِ مُنْقَصِمٍ
فَلَمَّا قَى النَّبِيِّينَ فِي خُلُقِي وَفِي خُلُقِي وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمٍ
وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَمِسٍ عَرَفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشَقًا مِنَ الدَّيَمِ^(٥)
وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمْ مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الْحَكَمِ
فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ ثُمَّ اصْطَلَفَاهُ حَبِيبًا بَارِئًا النَّسَمِ
مُنَزَّهًا عَنْ شَرِّكَ فِي تَحَابِسِهِ فَجَوَّهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمٍ
دَعَا مَا أَدْعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتِكِمِ
وَأَنْسُبْ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ وَأَنْسُبْ إِلَى قُدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عَظَمِ

(٤) السغب : الجوع ، والكشح : الحاصرة ، والأدم : الجلد . . ومترف الأدم : أى ناعم الجلد .

(٥) الديم : جمع ديمة ، وهى المطر الدائم . والمراد هنا تشبيه علم رسول الله ﷺ بالمطر الغزير .

فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ
 لَوْ نَسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عَظِيمًا
 لَمْ يَمْتَحِنًا بِهَا تَعْيَا الْعُقُولُ بِهِ
 أَغْيَا الْوَرَى فَهُمْ مَغْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى
 كَالشَّمْسِ تَطْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعْدٍ
 وَكَيْفَ يُذْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ
 فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ
 وَكُلُّ آيِ اتِّى الرُّسُلِ الْكَرَامِ بِهَا
 فَإِنَّهُ شَمْسٌ فَضْلُ هُمْ كَوَاكِبُهَا
 أَكْرَمَ يَخْلُقُ نَبِيًّا وَأَتَاهُ خُلُقٌ
 كَالزُّهْرِ فِي تَرَفٍ وَالْبَدْرِ فِي شَرَفٍ
 كَأَنَّهُ وَهُوَ قَرْدٌ مِنْ جَلَالَتِهِ
 كَأَنَّمَا اللُّؤْلُؤُ الْمَكُونُ فِي صَدَفٍ
 لَا طِيبَ يَعْدِلُ ثَرِبًا ضَمَّ أَعْظَمُهُ
 أَبَانَ مَوْلَاهُ عَنْ طِيبِ عُصْرِهِ
 يَوْمَ تَقَرَّسَ فِيهِ الْفُرْسُ أَنَّهُمْ
 وَبَاتَ إِيْوَانُ كِسْرَى وَهُوَ مُنْصَدِّعٌ
 وَالنَّارُ حَامِدَةُ الْأَنْفَاسِ مِنْ أَسْفٍ

حَدُّ فَيَعْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ يَقَمُ
 أَحْيَا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرِّمَمِ
 حِرْصًا عَلَيْنَا فَلَمْ تَرْتَبْ وَلَمْ يَمِ
 فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ فِيهِ غَيْرُ مُنْفَجِمِ
 صَغِيرَةً وَتَكُلُّ الطُّفْرَفُ مِنْ أَمِّ
 قَوْمٍ يَنَامُ تَسْلُوًا عَنْهُ بِالْحُلُمِ
 وَأَنَّهُ خَبِرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ
 فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُسُورِهِ بِهِمْ
 يُظْهِرُنْ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلُمِ
 بِالْحُسْنِ مُسْتَوِيلٌ بِالشَّرِّ مُنْتَسِمِ
 وَالْبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَالسَّهْرِ فِي هِمِّ
 فِي عَشْكَرٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفِي حَسَمِ
 مِنْ مَعْدِنِ مَنْطِقِي مِنْهُ وَمُتَسِمِ
 طُوبَى لِمَنْتَشِقِي مِنْهُ وَمُتَلَمِّمِ
 بِأَطِيبِ مُفْتَتِحِ مِنْهُ وَمُخْتَلِمِ
 قَدْ أُنْذِرُوا بِخُلُولِ الْبُؤْسِ وَالنَّقَمِ
 كَسَمَلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرِ مُلْتَمِ
 عَلَيْهِ وَالتَّهَرُّ سَاهِي الْعَيْنِ مِنْ سَدَمِ^(٦)

(٦) السدم : الحزن .

وَسَاءَ سَاوَةٌ أَنْ غَاصَتْ بُحَيْرُهَا وَزِدَّ وَارِدُهَا بِالْعَيْظِ حِينَ ظَمَى (٧)
كَأَنَّ بِالنَّارِ مَا بَالَمَاءِ مِنْ بَلَلٍ حُزْنَا وَبَالَمَاءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمٍ
وَالْجِبْنَ تَهْتَفُ وَالْأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى وَمِنْ كَلِمٍ
عَمُوا وَصَمُّوا فَيُاعْلَانُ الْبَشَائِرُ لَمْ تُسْمِعْ وَبَارِقَةُ الْإِنْدَارِ لَمْ تُسْمِ
مِنْ بَعْدِ مَا أَخْبَرَ الْأَفْوَامُ كَاهِنُهُمْ بِأَنَّ دِيْنَهُمُ الْمُعْتَرِجُ لَمْ يَقْمِ
وَبَعْدَمَا عَايَنُوا فِي الْأَفْقِ مِنْ شُهْبٍ مُنْقَضَةٍ وَفَقَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَنْمٍ
حَتَّى غَدَا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ مُنْهَزِمٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَفْقَهُوْا نَشْرَ مُنْهَزِمٍ
كَأَنَّهُمْ هَرَبُوا أَبْطَالَ أَبْرَهَةَ أَوْ عَسْكَرَ بِالْخَصَى مِنْ رَاخَتَيْهِ رُمَى
نَبَذَا بِهِ بَعْدَ تَسْبِيحِ بَيْطِهِمَا نَبَذَ الْمُسَبِّحِ مِنْ أَحْشَاءِ مُلْتَقِمٍ
جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الْأَشْجَارُ سَاجِدَةٌ تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلا قَدَمٍ
كَأَنَّهَا سَطَرَتْ سَطَرًا لَمَّا كَتَبَتْ فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الْخَطِّ بِاللَّقَمِ
مِثْلَ الْغَمَامَةِ آتَى سَارَ سَائِرَةٌ تَقِيهِ حَرَّ وَطِينٍ لِلْمُهْجِرِ حَمَى
أُفْسِمَتْ بِالْقَمَرِ الْمُشْتَقُّ إِنَّ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرُورَةَ الْقَسَمِ
وَمَا حَوَى الْغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ وَكُلَّ طَرَفٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْهُ عَمَى
فَالصَّدُوقُ فِي الْغَارِ وَالصَّدِيقُ لَمْ يَرَمَا وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرَمٍ
ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى خَيْرِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تَحْمِ
وَقَايَةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةِ مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأَطَمِ

(٧) ساوة : اسم مكان .

مَا سَامَيْى الدَّهْرُ ضَيْبًا وَاسْتَجَرْتُ بِهِ
وَلَا التَّمَسُّتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ
لَا تُنْكِرِ الْوَحْيَ مِنْ رُؤْيَاهُ إِنَّ لَهُ
وَذَلِكَ حِينَ بُلُوغٍ مِنْ بُرُوتِهِ
تَبَارَكَ اللَّهُ مَا وَحَى بِمُكْتَسَبٍ
كَمْ أُنْرَأْتُ وَصَبَا بِاللَّمْسِ رَاحَتُهُ
وَأُخِيتِ السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ دَعْوَتُهُ
بِعَارِضٍ جَادَ أَوْ خَلَّتْ الْبِطَاحُ بِهَا
دَعْنَى وَوَضَعِي آيَاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ
فَالدُّرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظَمٌ
فَمَا تَطَاوُلَ أَمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى
آيَاتٍ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ
لَمْ تَقْصُرْ بِزَمَانٍ وَهِيَ تُخْبِرُنَا
دَامَتْ لَدُنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجَزَةٍ
مُحْكَمَاتٍ فَمَا تُبْقِيَنَّ مِنْ شُبُهَةٍ
مَا حُورِبَتْ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرَبٍ

إِلَّا وَنَلْتُ جَوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضْمِ
إِلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمٍ
قَلْبًا إِذَا نَامَتِ الْعَيْنَانِ لَمْ يَنْمِ
فَلَيْسَ يُنْكِرُ فِيهِ خَالٌ مُحْكَمٍ
وَلَا نَبِيٌّ عَلَى غَيْبٍ بِمُتَّهِمٍ
وَأَطْلَقْتُ أَرْبَا مِنْ رُبْقَةِ اللَّحْمِ (٨)
حَتَّى حَكَّتْ غُرَّةً فِي الْأَعْصَرِ الدُّهْمِ (٩)
سَيِّبَ مِنَ الْيَمِّ أَوْ سَيَّلَ مِنَ الْعَرِمِ
ظُهُورَ نَارِ الْقِرَى لَيْلًا عَلَى عِلْمٍ
وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظَمٍ
مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشَّيْمِ
قَدِيمَةٌ صِفَةُ الْمُوصُوفِ بِالْقَدَمِ
عَنِ الْمَعَادِ وَعَنِ عَادٍ وَعَنِ إِرَمِ (١٠)
مِنْ النَّبِيِّنَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ
لِذِي شِقَاقٍ وَمَا تَبَغَّيَنَّ مِنْ حَكَمٍ
أَعْدَى الْأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقَى السَّلَامِ

(٨) ريقه اللحم : الجنون .

(٩) الأعصر الدُّهْم : الأرملة السوداء .

(١٠) عاد : قوم منقرضون ، وإرم : مدينة منقرضة .

رَدَّتْ بِلَاغَتُهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا رَدَّ الْعَيُورُ يَدَ الْجَانِي عَنِ الْحَرَمِ
هَذَا مَعَانِ كَمْوُجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيمِ
فَلَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا وَلَا تُسَامُ عَلَى الْإِكْتَارِ بِالسَّامِ
قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيَتَا فَقُلْتُ لَهُ لَقَدْ ظَفِرْتُ بِحَبْلِ اللَّهِ فَاعْتَصِمِ
إِنْ تَتْلَاهَا خِيفَةً مِنْ خَرَارِ لَطَى أَطْفَأَتْ نَارَ لَطَى مِنْ وَرْدِهَا الشَّمِ (١١)
كَأَنَّهَا الْحَوْضُ تَبْيِضُ السُّجُودَ بِهِ مِنَ الْعَصَاةِ وَقَدْ جَاءَهُ كَالْحَمِ
وَكَالصَّرَاطِ وَكَالسِمِيزَانِ مَعْدَلَةً فَالْقِسْطُ مِنْ غَيْرِهَا فِي النَّاسِ لَمْ يُمْ
لَا تَعْجِبَنَّ لِحُسُودِ رَاحِ يُنْكِرُهَا تَجَاهُلاً وَهُوَ عَيْنُ الْحَادِقِ الْقَهْمِ
قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ زَمَدٍ وَيُنْكِرُ الْقَمَ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ
يَا خَيْرَ مَنْ يَمَمُ الْعَافُونَ سَاحَتَهُ سَعِيًا وَفَوْقَ مُتَوْنِ الْأَيْتِي الرُّسَمِ (١٢)
وَمَنْ هُوَ التَّعَمُّةُ الْعُظْمَى لِمُعْتَبِرٍ وَمَنْ هُوَ التَّعَمُّةُ الْعُظْمَى لِمُعْتَبِرٍ
سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلًا إِلَى حَرَمٍ كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
وَبِتَّ تَرْقَى إِلَى أَنْ نَلَتْ مَنْزِلَةً مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرِكْ وَلَمْ تُرَمِ
وَقَدْ مَتَّكَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا وَالرُّسُلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ
وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطَّبَاقَ بِهِمْ فِي مَوْكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعِلْمِ
حَتَّى إِذَا لَمْ تَدَعْ شَأْؤًا لِمُسْتَبَقِي مِنَ الدُّنْوَ وَلَا مَرْقَى لِمُسْتَبَقِي

(١١) الشيم : البارد .

(١٢) الأيتي : جمع ناقة .

خَفَضْتُ كُلَّ مَقَامٍ بِالإِضَافَةِ إِذْ
كَيِّمًا تَقُوزُ بِوَضَلِ أَيْ مُسْتَرِيرٍ
فَحَزَنْتُ كُلَّ فَخَارٍ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ
وَجَلَّ مَقْدَارُ مَا أُوتِيَتْ مِنْ رُتَبٍ
بُشْرَى لَنَا مَعَشَرَ الإِسْلَامِ إِنْ لَنَا
لَمَّا دَعَا اللَّهُ دَاعِيَنَا لِطَاعَتِهِ
رَاعَتْ قُلُوبَ الْعِدَا أَنْبَاءَ بَعَثِهِ
مَا زَالَ يَلْقَاهُمْ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ
وَدُّوا الْفِرَارَ فَكَادُوا يَغِيْطُونَ بِهِ
تَمْضِي اللَّيَالِي وَلَا يَذُرُونَ عِدَّتَهَا
كَانَ مَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ
يَجْرُ نَحَرَ كَيْسٍ فَوَقَّ سَابِغَةَ
مِنْ كُلِّ مُتَنَبِّدٍ لِلَّهِ مُحْتَسِبٍ
حَتَّى عَدَتْ مِلَّةُ الإِسْلَامِ وَهِيَ بِهِمْ
مَكْفُولَةٌ أَبَدًا مِنْهُمْ بِخَيْرِ أَبِي

نُودِيَتْ بِالرَّفْعِ مِثْلَ الْمَفْرَدِ الْعَلَمِ
عَنِ الْغُيُوثِ وَسِرٍّ أَيْ مُكْتَنَّمِ
وَجَزَنْتُ كُلَّ مَقَامٍ غَيْرَ مُزْدَحَمٍ
وَعَزَّ إِذْرَاكَ مَا أُوتِيَتْ مِنْ نَعَمٍ
مِنْ الْعِنَايَةِ رَكْنَا غَيْرَ مُنْهَدِمٍ
بِأَكْرَمِ الرُّسُلِ كُنَّا أَكْرَمَ الْأُمَمِ
كَتَبْنَا أَجْفَلَتْ عُفْلًا مِنَ الْعَسَمِ
حَتَّى حَكَّوْا بِالْقَنَا لَحْمًا عَلَى وَصَمٍ (١٣)
أَشْلَاءَ شَالَتْ مَعَ الْعِقْبَانِ وَالرَّحِمِ (١٤)
مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيَْالِي الْأَشْهُرِ الْحُرَمِ
يَكُلُّ قَرَمٍ إِلَى لَحْمِ الْعِدَا قَرَمٍ (١٥)
يَرْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الْأَبْطَالِ مُلْتَطِمٍ
يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكُفْرِ مُصْطَلِمٍ (١٦)
مِنْ نَعْدِ غُرَبَائِهَا مَوْصُولَةَ الرَّجَمِ
وَحَيْرِ بَعْلِ فَلَمْ تَلِيَنَّ وَلَمْ تَلِيَنَّ

(١٣) حَكَّوْا: شَاهَبُوا، وَبِالْقَنَا: أَيْ الطَّعَنَ بِالرَّوْحِ، وَالْوَصَمُ: تَعْنِي الْحَشِيَّةَ الَّتِي يَضَعُ عَلَيْهَا الْجَزَارَ اللَّحْمَ.

(١٤) الرَّحِمُ: نَوْعٌ مِنَ الطَّيْرِ.

(١٥) قَرَمٍ: شَجَاعٍ.

(١٦) مُصْطَلِمٍ: مَهْلِكٌ هُمُ.

هُمُ الْجَبَالُ فَسَلَّ عَنْهُمْ مُصَادِمُهُمْ مَاذَا رَأَى مِنْهُمْ فِي كُلِّ مُصْطَلَمٍ
وَسَلَّ حُنَيْنًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أَحَدًا فَصُولُ حَنْفٍ هُمْ أَذْهَى مِنَ الْوَحْمِ
الْمُصْدِرِ الْبَيْضِ مُهْرًا بَعْدَ مَا وَرَدَتْ مِنَ الْعِدَا كُلِّ مُسَوِّدٍ مِنَ اللَّحْمِ
وَالْكَاتِبِينَ بِسُمْرِ الْخَطِّ مَا تَرَكَتْ أَفْلاهُمْ حَزَفَ جِسْمٍ غَيْرِ مُنْعَجِمٍ
شَاكِي السَّلَاحِ هُمْ سَيِّمَاتُ نَيْزِهِمْ وَالْوَزْدُ يَمْتَنِزُ بِالسَّيَا عَنِ السَّلَمِ
تُهْدَى إِلَيْكَ رِيَّاحُ النَّصْرِ تُشْرَهُمْ فَتَحْسَبُ الزَّهْرَ فِي الْأَنْهَامِ كُلَّ كَيْمٍ (١٧)
كَانَهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبْتُ رُبَا مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ
طَارَتْ قُلُوبُ الْعِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقَا فَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْبَاءِ هُمْ وَالْبَهْمِ
وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ إِنْ تَلَقَّه الْأَشَدُّ فِي آجَامِهَا نَجْمِ (١٨)
وَلَنْ تَرَى مِنْ وَلِيٍّ غَيْرِ مُنْتَصِرٍ بِهِ وَلَا مِنْ عَدُوٍّ غَيْرِ مُنْقَصِمٍ
أَحْلَى أُمَّتِهِ فِي حِزْزِ مِلَّتِهِ كَاللَّيْلِ حَلَّ مَعَ الْأَشْبَالِ فِي أَجْمِ
كَمْ جَدَلَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ مِنْ جَدِلٍ فِيهِ وَكَمْ خَصِمَ الْبَرْهَانُ مِنْ خَصِمٍ
كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الْأُمِّيِّ مُعْجِزَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالنَّاسِيَةِ فِي الْيَوْمِ
خَدَمَتْهُ بِمَدِيحِ أَشْتَقِيلٍ بِهِ ذُنُوبٌ عُمُرٍ مَضَى فِي الشُّعْرِ وَالْخِدَمِ
إِذْ فَلَدَانِي مَا تُخْشَى عَوَاقِبُهُ كَأَنِّي بِهِمَا هَلْدِي مِنَ النَّعَمِ
أَطَعْتُ عَمَى الصَّبَا فِي الْحَالَتَيْنِ وَمَا حَصَلْتُ إِلَّا عَلَى الْأَنْهَامِ وَالنَّدَمِ

(١٧) الكمي : الشجاع في سلاحه .

(١٨) نجم : نجين .

فَيَا خَسَارَةَ نَفْسٍ فِي تِجَارَتِهَا لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا وَلَمْ تَسْمِ
وَمَنْ يَبِيعُ أَجَلًا مِنْهُ بِعَاجِلِهِ يَبِينُ لَهُ الْغَبْنُ فِي بَيْعٍ وَفِي سَلَمٍ
إِنْ آتَ دُنْيَا فَمَا عَهْدِي بِمُسْتَقْبَضٍ مِنَ النَّبِيِّ وَلَا حَبْلِي بِمُنْصَرِمٍ
فَلَيْتَ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَّتِي مُحَمَّدًا وَهُوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِالدِّمِّ
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي أَخِذًا بِيَدِي فَضْلًا وَإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ
حَاشَا أَنْ يَحْزِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ أَوْ يَرْجِعَ الْحَارُّ مِنْهُ غَيْرَ مُحْتَرَمٍ
وَمُنْذُ أَلَزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَائِحَهُ وَجَذْبُهُ لِحَاصِي خَيْرٍ مُلْتَزِمٍ
وَلَنْ يَفُوتَ الْغِنَى مِنْهُ يَدَا تَرِبَتْ إِنَّ الْحَيَا يُنْبِثُ الْأَرْهَارَ فِي الْأَكَمِ
وَلَمْ أَرُذْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا الَّتِي افْتَقَطَتْ يَدَا زَهْرٍ بِهَا أَتَسْنَى عَلَى هَرِيمٍ
يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَالِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ يَسْوَكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَوَمِ
وَلَنْ يَضِيقَ رَسُولَ اللَّهِ جَاهُكَ بِي إِذَا الْكَرِيمُ تَحَلَّى بِاسْمِ مُنْتَقِمٍ
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ
يَا نَفْسُ لَا تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ إِنَّ الْكِبَائِرَ فِي الْغُفْرَانِ كَاللَّمَمِ (١٩)
لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا تَأْتِي عَلَى حَسْبِ الْعِصْبَانِ فِي الْقِسَمِ
يَا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ لَدَيْكَ وَاجْعَلْ حِسَابِي غَيْرَ مُنْخَرِمٍ
وَالطُّفَّ بِعَبْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ إِنَّ لَهُ صَبْرًا مَتَى تَدْعُهُ الْأَهْوَالُ بِنَهْزِمٍ
وَأُذِّنْ لِسُحْبِ صَلَاةٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ عَلَى النَّبِيِّ بِمُنْهَلٍ وَمُنْسَجِمٍ

(١٩) الكبائر : الذنوب العظيمة ، واللهم : الذنوب الصغيرة .

مَا رَزَحَتْ عَذَابَاتِ الْبَانِ رِيحُ صَبَا
ثُمَّ الرِّضَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعَنْ عُمَرَ
وَالْأَلِ وَالصَّحْبِ ثُمَّ التَّابِعِينَ فَهُمْ
يَا رَبِّ بِالْمُصْطَفَى بَلَّغْ مَقَاصِدَنَا
وَاعْفِرْ لَنَا مَا مَضَى يَا وَاسِعَ الْكَرَمِ
يَتْلُوهُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَفِي الْحَرَمِ
وَاسْمُهُ قَسَمٌ مِنْ أَعْظَمِ الْقَسَمِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي بَدْءٍ وَفِي خَتَمِ
فَرُجٍ بِهَا كُزِّبْنَا يَا وَاسِعَ الْكَرَمِ

- أبو الحسن الشاذلي : حياته وتلاميذه وأوراده
- أبو الحسن الشاذلي : الصوفي المجاهد العارف بالله
- إحياء علوم الدين
- جاريات
- خاتم النبيين
- ديوان البوصيري
- ذيل كتاب «مرشد الزوار إلى قبور الأبرار»
- فصول في الشعر ونقده
- مدخل إلى التصوف الإسلامي
- مساجد مصر وأولياؤها الصالحون
- مأمون غريب
- د . عبد الحليم محمود
- الإمام أبو حامد الغزالي
- علي الجارم
- الشيخ محمد أبو زهرة
- بتحقيق : محمد سيد كيلاني
- محمد فتحي أبو بكر
- د . شوقي ضيف
- د . أبو الوفا التفتازاني
- د . سعاد ماهر



مؤسسة للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043